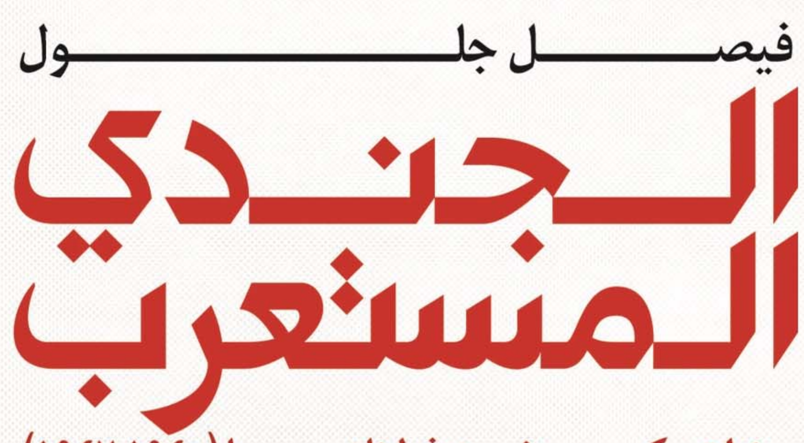


فيصل جلول

الجندي المستعرب

سنوات مكسيم رودنسون في لبنان و سوريا (١٩٤٠-١٩٤٧)

دار الفارابي

الجندي المستعرب

فيصل جلول

الجندي المستعرب

يوميات مكسيم رودنسون

في سوريا ولبنان (1940 - 1947)

دار الفارابي

الكتاب: الجندي المستعرب

المؤلف: فيصل جلول

الغلاف: ناجي المير

الناشر: دار الفارابي بيروت - لبنان

ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)

ص.ب: 11/3181 - الرمز البريدي: 2130 1107

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: 1998

الطبعة الثانية: كانون الثاني 2013

ISBN:978-9953-71-896-5

كلمة حول الطبعة الثانية

تنطوي الطبعة الثانية من هذا الكتاب على المادة الأساسية التي نشرت في طبعته الأولى، وبالتالي فهو مازال محتفظاً بمحتواه الأصلي كشهادة شخصية فريدة لمستشرق فرنسي معروف حول فترة حاسمة في تاريخ لبنان المعاصر نعثر في طياتها، على رواية تفصيلية مباشرة للاستقلال اللبناني عن الانتداب الفرنسي، ناهيك عن تفاصيل أخرى حول المجتمع والسياسة في لبنان ومجابهات أنصار فرنسا الحرة والفيشيين والقوات البريطانية... الخ

أما الاضافات التي تمت في هذه الطبعة فهي تشمل مقدمة «ميشال رودنسون» نجل المستشرق مكسيم رودنسون الذي توفي عام 2004، يتحدث فيها عن أثر الاقامة في لبنان في مستقبل والده الاستشراقي وفي حياة العائلة في باريس، علماً أنَّ رودنسون الابن ولد مع شقيقته في بيروت، ومازال يعتبر لبنان جزءاً أساسياً من حياته.

ومن بين الاضافات صور جديدة حول جوانب من حياة الفرنسيين في بيروت، فضلاً عن هوامش ايضاحية غابت عن الطبعة الأولى.

يبقى التذكير بأن مبادرتي لإعداد «الجندي المستعرب» والتمهيد له بنص نقدي حول الاستشراق، تنطلق من تقدير خاص لـمكسيم رودنسون ولجهوده المهمة في التعريف الموضوعي بالعرب والمسلمين والامتناع عن استخدام وسائله وتقنياته العلمية من أجل شيطنتهم وتحقيرهم والحط من شأنهم أو تحريف معتقداتهم وأفكارهم للفوز برضى أعدائهم وخصومهم.

وبمناسبة الطبعة الثانية، لا بد من توجيه شكر خاص إلى دار الفارابي التي استقبلت هذا الكتاب وبذلت جهداً مضاعفاً حتى يخرج في صيغته الراهنة.

وأختم هذه الكلمة بإهداء خاص إلى صحبة معهد العلوم الاجتماعية (طلاب وأساتذة) في السنوات الواقعة بين 1978 و1982، ففي تلك الفترة تعرفت عن كثب إلى ظاهرة الاستشراق وإلى دوره الأساسي في تشكيل وعي النخب في المستعمرات القديمة ومن نقاشات تلك الفترة المضطرمة اكتسبت فضول التعرف إلى مستشرق مناهض للكولونيالية جدير بالتحية والتقدير.

فيصل جلول

باريس في 4 تشرين الأول/ أكتوبر 2012

الجندي المستعرب بعيني نجله

يسعدني أن يقرر فيصل جلول ودار الفارابي إعادة نشر كتاب «الجندي المستعرب» الذي صدر للمرة الاولى عام 1998 (دار الجديد) وقد نفد منذ ذلك الحين. وأنا واثق بأنَّ قراء عديدين لبنانيين وعرباً يمكن أن يباركوا هذا الإصدار. ولا أقول ذلك لأسباب شخصية على الإطلاق.

بالطبع، مكسيم رودنسون هو والدي ولو لم يعش في لبنان خلال فترة الحرب العالمية الثانية كما يعرض الكتاب لظروف حياته، لما ولدت شخصياً في بيروت في آذار/ مارس 1945، بل بلا أدنى شك لما كنت قد ولدت البتة. بالفعل يروي هذا الكتاب الظروف التي أحاطت بولادتي والتي لم أعرف منها إلا شذرات التقطتها من مرويات عائلتي. ولكن السيرة التي رواها مكسيم لفيصل جلول تعكس لوحة أكثر غنى حول ما كانت عليه الحال في لبنان بين 1940 و1945 بالنسبة إلى «الجندي المستعرب»، الذي رمت به الحرب في هذا المكان. وهذا بالتحديد ما يجعل الكتاب مهماً ليس بالنسبة إليَّ وإلى أهلي فحسب،

ولكن أيضاً بالنسبة إلى أولئك الذين يودون التعرف بطريقة أفضل إلى هذا الماضي.

لقد جاء والدي إلى لبنان سنة 1940 بوصفه جندياً في الجيش الفرنسي أي في القوة الكولونيالية التي كانت «منتدبة» على هذا البلد. في الواقع لم يكن جندياً متحمساً لاستخدام بندقيته. ولا أعلم إن كان قد أطلق يوماً ما رصاصة واحدة من فوهتها. وأولئك الذين عرفوه في تلك الفترة من رفاق فصيله العسكري يقولون بدعابة: إنَّ هذا المفكر لم يكن على ما يظهر يعرف من أي طرف يمسك ببندقيته. ولكن «مكسيم» والدي ما كان له خيار آخر: لقد استُدعي إلى التجنيد الاجباري في نهاية العام 1939 وهو في الرابعة والعشرين من عمره تماماً كجميع الشبان الذين ينتمون إلى جيله عندما أعلنت فرنسا الحرب على ألمانيا.

لقد أمضى الشهور الاولى من الحرب في ثكنة عسكرية في الطرف القصي من منطقة البريتانيي. وفي شهر أيار/ مايو عام 1940، وفي حين كان الهجوم الالماني يتسع في شمال وشرق فرنسا، علم أنَّ في فصيله العسكري يبحثون عن متطوعين من أجل مهمة عسكرية في المشرق، وهي التسمية التي كانت تطلق على الشرق الاوسط. وكما سيتضح لاحقاً فإنَّ الامر كان يتعلق بمشروع سوريالي إلى حد ما اعتمدته رئاسة الاركان. وعليه فإنَّ مكسيم الذي درس العربية بين لغات أخرى في مدرسة اللغات الشرقية في باريس، التقط الفرصة المعروضة أمامه ليتواصل مع العالم العربي.

كان مكسيم الذي سيصبح مستشرقاً ذائع الصيت يتساءل دائماً، وهو ابن عائلة فقيرة من الحرفيين اليهود المهاجرين من روسيا، كيف سيتمكن ذات يوم من ايجاد المال اللازم لتغطية نفقات سفره إلى إحدى دول المشرق. لذا لم يتردد البتّة في التطوع وسط دهشة رفاقه في الوحدة العسكرية الذين سألوه مستغربين عمّ سيفعله في بلدان كلبنان وسوريا بالكاد يعرفون تعيين موقعها على الخريطة.

في الواقع كانت تلك فرصته الذهبية لأنه بدون هذا الخيار ربما كان سيقتل بعد أسابيع، كما هي حال بعض رفاقه الذين استغربوا سفره إلى بقاع قصية، إذ أن هؤلاء الذين ذهبوا إلى المعركة كان الموت يسكن نفوسهم معطوفاً على الحزن والتسليم بالقدر المحتوم، الذي كان يسيطر على شعب عانى خلال 21 عاماً حربين قاتلتين على التراب الفرنسي. كانت تلك إذن فرصته المنتظرة للاتصال بالشرق العربي.

هكذا إذن ولدت في العام 1945 وذهبت إلى فرنسا في العام 1946 أي بعد مرور سنة على ولادتي وليس لدي بالطبع أي ذكرى شخصية عن لبنان في تلك الفترة بخلاف أخي دانييل المولود في فرنسا في العام 1938، والذي بدأ دراسته في العاصمة اللبنانية. ولم تتح لي الفرصة للتعرف إلى لبنان إلا في وقت متأخر جداً، ومع ذلك لدي انطباع كما أخي وأختي أنني عشت جزءاً من فتوتي فيه، وأنني ما انقطعت أبداً عن معرفته.

في الواقع ما انفكت عائلة رودنسون التي رجعت إلى باريس

مطبوعـة بالسـنوات التـي أمضتهـا فـي المشـرق، وأعتقـد أنَّ والدتـي التـي ذهبـت إلـى بيـروت عـام 1941 لملاقـاة مكسـيم كانـت سـعيدة جـداً هنـاك، فالحكايـا عـن الفصيـل العسـكري والسـنوات اللبنانيـة التـي كان يروبانهـا والـداي بظرفهمـا المعهـود، كانـت ملـح جلسـاتنا العائليـة، وحـدِّث ولا حـرج عـن اكتسـاب العائلـة للخبـرة المتراكمـة مـن تلـك الفتـرة فـي مجـال المطبـخ اللبنانـي وقـد أغنتنـا فـي الواقـع بمـا تحتـوي مـن أطبـاق شـهية كالتبولـة والكبّـة والحمـص والفتـوش التـي كانـت غذاءنـا اليومـي.

وأخيراً لقد كانت السنوات اللبنانية منطلقاً حقيقياً لمكسيم في مساره الاستشراقي، وليس لكونه على احتكاك مباشر بموضوع دراساته فحسب. فالاستشراق عند مكسيم كلمة ما كان يحبها على ما أحسب، ولم تكن موضوعاً ثقافياً وإنما تنطوي على اهتمام عميق بالناس. لقد كان كما يقال عندنا «سلس المعشر»، وسنرى من خلال الكتاب كيف استطاع أن يقيم صلات فورية مع اللبنانيين والسوريين وأن يهتم بهم وبحياتهم وقد اتخذ هذا الاهتمام وجهاً سياسياً، ذلك لأنه بادر على وجه السرعة كعضو في الحزب الشيوعي الفرنسي إلى الاتصال بالشيوعيين اللبنانيين. وسوف تستمر في باريس هذه العلاقة مع مناضلين من الشرق الاوسط حيث كانت العائلة تستقبل إلى مائدتها غالباً مناضلين لبنانيين ومصريين يتبادلون الحديث عن الوضع في الشرق الاوسط.

كان مكسـيم يغـوص فـي عمـق الاشـياء، ورغـم أنـه كان عالمـاً مثقفـاً

إلا أنـه كان بحاجـة إلـى الاسـتناد إلـى الوقائـع الملموسـة والانطـلاق منهـا فـي مسـاره البحثـي. أعتقـد أنـه مـا كان بوسـعه أن يتحـدث عـن العالـم العربـي والإسـلامي كمـا فعـل لـو لـم يعـش هنـاك ولـو لـم يختلـط ويتعـرف مباشـرة إلـى النـاس. وهـذا يصـح بالفعـل علـى كتاباتـه السياسـية التـي تتنـاول الحـدث الراهـن، ولكـن يصـح أيضـاً علـى دراسـاته المتعلقـة بالماضـي البعيـد. ويمكننـا القـول إلـى هـذا الحـد أو ذاك أنـه مـا كان ليسـتطيع أنجـاز كتـاب «محمـد» لـو لـم يعـش سـنواته اللبنانيـة التـي يعرضهـا فـي هـذا الكتـاب أو فلنقـل أنـه مـا كان ليصـدر علـى النحـو الـذي صـدر عليـه.

في كتاب «محمد» هناك إرادة كما عهده على الدوام إجراء دراسة علمية تحتوي على وقائع مؤكدة ومبرهنة ومسندة إلى مراجع موثوقة، ولكن في الكتاب أيضاً، معرفة بالدين الإسلامي كما كان سائداً وكما كان الناس الذين عرفهم يعتنقونه ويمارسون طقوسه.

لقد كان مكسيم ملحداً مقتنعاً بإلحاده ولا يقدم أي تنازل للأديان. ولم يكن من المبشّرين بذاك النوع من النفاق الغنّوصي الرائج اليوم عند عدد كبير من المثقفين وحتى العلماء. إذ يفضل هؤلاء ترك السؤال عن وجود الله مفتوحاً عندما تطرح الظاهرة الدينية على بساط البحث، حتى ولو كان هذا الأمر يتعارض تماماً مع معتقداتهم ومعارفهم خوفاً من استدراج نقمة المتدينين. وهذا ما لا نلاحظه البتّة عند مكسيم. ومع ذلك فإنَّ كتابه عن «محمد» كان مطبوعاً بهاجس معرفي وبرغبة أكيدة في أن يفهم كتابه من الجميع حتى من المسلمين المؤمنين دون أن

يسعى إلى التصادم معهم اعتباطاً.

ورغم أن مكسيم كان يرى أن الدين معتقد تخطته العقلانية، إلا أنه لم يقلل من احترام الناس الذين يجاهرون به، وهنا بالتأكيد يكمن موقفه العادل من الذين يريد إقناعهم أو تطوير مواقفهم. إن التباين بين موقفه والنقاشات التي تدور هذه الايام مذهل إذا ما عدنا إلى الشتائم والتحريم الذي يتبادله أصوليون مسلمون ومعارضون غربيون لا ندري حتى هذه اللحظة في أي موقع يتموضعون.

من المؤسف القول إن المنهج العلمي في كتاب «محمد»، لم يمنع بعض الأصوليين من تنظيم حملة ضد أستاذ في الجامعة الامريكية في القاهرة نصح طلابه بقراءة هذا الكتاب ضمن لائحة من الكتب، معتبرين أنه بمثابة شتيمة للدين على أنَّ هؤلاء الناس لا يحتاجون إلى قراءة كتاب حتى يقرروا منعه بأية حال. علماً أنَّ مكسيم كان طوال حياته مناهضاً بعمق لأشكال التعصب الظلامية كافة.

إنَّ تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب موسوم بالعنف وبحملات عسكرية قاتلة خلفت لدى الشعوب جروحاً عميقة وخصوصاً في الشرق الاوسط.

واذا كان «الجندي المستعرب» مكسيم رودنسون مرتدياً اللباس العسكري عندما وطئت قدماه الأرض اللبنانية، فإن صلاته بلبنان ما كانت قط شبيهة بسلوك جندي متطوع. إنَّ شهادته في هذا الكتاب تبرهن عن ذلك تماماً.

لقد كانت علاقته بلبنان علاقة إنسان متعطش إلى التعرف إلى شعوب أخرى وفهمها، وبذلك كان بعيداً سنوات ضوئية عن سلوك جندي ينتمي إلى جيش يخوض حملة عسكرية.

يحلو لي أن أعتقد أنَّ إنتاجه المعرفي قد ساهم في لقاء جسور بين الشعوب وفتح طرقات يمكن لآخرين من بعده إكمالها، وأنه سيظل في التاريخ بين أولئك الذين ساعدوا البشرية على التقدم. ولعل هذا فائق القيمة في عصر يوحي بأنّ الانسانية تتراجع بخطى حثيثة إلى الوراء.

ميشال رودنسون

في 29 أيلول/سبتمبر 2012

المشرف العام على صحيفة لوت أوفريار (lutte

ouvrière) الناطقة باسم منظمة النضال العمالي

التروتسكية في فرنسا.

المستشرق والكشّاف أوالمُخبر

بمثابة احتجاج لهذا الكتاب

علمتُ في خلال لقاء عابر مع المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون، في باريس عام 1993، أنه عاش في بيروت وصيدا (لبنان) ودمشق وحمص (سوريا) في خلال السنوات الواقعة بين 1940م و1947م، فَخَطَرَ لي أن أحادثه مطولاً عن تلك السنوات وأن أصنع من مروياته نصاً يصدر في كتاب مستقل؛ وكان كذلك.

رغم ذلك، فهذا الكتاب في صيغته الراهنة ليس رهين تلك الصدفة الأولى، إذ لا يكفي، في اعتباري، أن يعيش مستشرق فرنسي سبع سنوات في لبنان حتى يستوجب الأمر إعداد كتاب عن تفاصيل حياته وتجاربه وانطباعاته عن بلادنا وما فيها، ولا يكفي أيضاً أن يكون هذا المستشرق من طراز رودنسون، وأن يكون ذائع الصيت (نسبياً) حتى يصبح بديهياً أن ينال اهتماماً استثنائياً، وأن تعمَّم مروياته ومواقفه عبر

نصٍّ مطبوع على قراء العربية عموماً واللبنانيين والسوريين بصورة خاصة؛ عليه، فلا بدّ لهذا الخيار من«تبرير» ضافٍ ومن نسبة إلى دواعٍ تعدو الشخص اسماً وشهرة.

في الحقيقة، لقد شغلني سؤال كبير قبل إعداد هذا الكتاب وفي أثنائه: لماذا امتنع رودنسون، وهو اختصاصي مهمّ يتمتع بخبرة كبيرة في الشؤون الإسلامية - لماذا امتنع عن استخدام سنواته اللبنانية في تقديم نفسه وفي دعم نصوصه لدى قرائه. وشغلني سؤال آخر يتصل بالسبب أو الأسباب التي حملته على اختيار اللغة الأثيوبية (الحميرية) لتحديد اختصاصه المهني في الجامعة، علماً أنه يجيد العربية، وعاش زمناً طويلاً في بلدين عربيين؟ ألم يتذرع كل المستشرقين والمختصين بشؤون العالم العربي بمعرفتهم للغة العربية وبمعايشتهم العرب، أو بعض بلدانهم، من أجل دعم حججهم في حقول اختصاصهم وإضفاء «مصداقية» أكبر على نصوصهم؟[1] لماذا إذن أهمل رودنسون ذريعة ثمينة تدخل عادة في صلب هوية المستشرق وفي صميم سلطته المعنوية والمعرفية.

(1) لإضفاء مصداقية أكبر على أبحاثه حول لبنان والعرب، كان يشير عالم الاجتماع الراحل دومينيك شوفالييه في جلساته الخاصة إلى زياراته المتقطعة للبنان خلال إعداد أطروحته حول «جبل لبنان في عصر الثورة الصناعية في أوروبا» ومثله كان يفعل جاك بيرك وآخرون أعدّوا أبحاثاً ودراسات عن بلدان عربية وإسلامية.

جواب رودنسون عمّا تقدم يجده القارىء في القسم الثاني من هذا الكتاب أما جوابي فهو جزء لا يتجزأ من مبادرتي إلى إعداد هذا النص.

من البديهي أن المستشرقين ليسوا طائفة متجانسة. طبعاً يجمع بينهم موضوع دراساتهم واهتماماتهم، لكن ذلك لا يجعلهم سواسية كأسنان المشط. وإذ لم أقعْ على تصنيف جامع لهم بالقياس على دوافعهم ومواقفهم تجاه قضايانا، فإن معرفتي بهم تحملني على القول إن قلّة من المستشرقين التزمت شروطاً أخلاقية في إنتاجها المعرفي، وكانت حريصة على «الشرف الثقافي»، على ما يصف الفرنسيون عمل المثقف ومواقفه. وأزعم أن رودنسون ينتمي إلى هذه القلة التي لم تستخدم وسائلها المعرفية في إنتاج نصوص مؤذية للعرب والمسلمين، بل ينتمي إلى فئة حاولت أن تفهم الآخر العربي المسلم، وأن تحترم ماهيته وتفسر سلوكه وردود فعله وتاريخه وحضارته، بدون إسقاطات غربية، وبلا عدوانية من جهة، وبدون مداهنة أو تقديس وبقدرٍ مرتفع من النقد المفيد والضروري من جهة أخرى؛ ولهذا الحكم براهين وأدلة سيقف عليها القارىء الذي لا يعوزه الصبر تدريجاً.

يقف رودنسون على مسافة بعيدة من مثالين من مثقفي الاستشراق في فرنسا: المثال الأول هو المثقف الكشاف أو المُخْبِر، وسأستدلُّ عليه من خلال حملة بونابرت على مصر؛ والثاني هو الجاسوس ومثاله دو فوكو في رحلته المغربية.

تُقَدِّمُ حملةُ نابليون بونابرت الشهيرةُ على مصر (1798-1801)

دليــلاً صريحــاً علــى التعــاون الواعــي بيــن المثقــف - المستشــرق والفاتــح العســكري ذي الطمــوح اللامحــدود. لا أعــرف إذا كانــت هــذه الحملــة قــد أسســت للظاهـرة الكولونياليـة الفرنسـية فيمـا بعـد، فـي آسـيا والشـرق الأوسـط وأفريقيــا، لكنهــا، لا شــك، محطــةٌ مهمــة، إن لــم نقــل حاســمة، فــي تاريــخ الكولونياليــة الفرنســية.

كانت حملة بونابرت على مصر هي الأولى من نوعها بعد الثورة الفرنسية (1789م) وهدفها الصريح تأسيس مستعمرة في الشرق، بوسائل عسكرية وثقافية وعمرانية، الأمر الذي يُفسّر حرص قائدها على اصطحاب مجموعة كبيرة من المثقفين إلى مصر من بينهم، 21 عالم رياضيات و3 فلكيين و71 مهندساً مدنياً و13 عالماً في الطبيعيات ومهندس مناجم و4 مهندسين معماريين و8 رسامين و10 أدباء و22 اختصاصياً في الطباعة، مزودين وسائل تقنية حديثة وأحرفاً عربية ولاتينية ويونانية، ورسامٌ واحدٌ للمشاهد والشخصيات وعازف بيانو[1]!

قبــل عشــرة ســنوات مــن تجريــد الحملــه كان الرحالة-المستشــرق ڤولنــي قــد كشــف لمواطنيــه «أشــياء كثيــرة عــن مصــر لــم يكــن أحــد فــي فرنســا يعرفهــا مــن قبــل» وذلــك مــن خــلال رحلتــه الشــهيرة إلــى مصــر وســوريا عــام

(1) وردت هذه الأرقام والمعلومات عن حملة نابليون بونابرت على مصر في دراسة هامة بعنوان «Bonaparte en Egypte» كتبها المؤرخ المعروف جان تولار (Jean Tulard) في المجلة التاريخية الفرنسية الشهيرة L'Histoire، العدد 61، نوفمبر/تشرين الثاني، 1983.

1787م[1]. كان ڤولني كشافاًحقيقياً لهذه الحملة وكانت نصائحه فيما بعد على قدر كبير من الأهمية بالنسبة إلى بونابرت، ذلك أنه حذّر من مخاطر تدخل تركي ضد الفرنسيين، وأكّد لحكومة بلاده أن احتلال مصر يوجب القيام بثلاث حروب: الحرب الأولى ضد بريطانيا؛ والحرب الثانية ضد الباب العالي؛ والثالثة، وهي الأصعب بنظره، ضد السكان المسلمين الذين يكرهون الأجانب[2].

كان ڤولني إذن مدركاً لوظيفته ودوره القومي في خدمة سياسة بلاده الكولونيالية. كان مثقفاً كشافاً، مثله مثل جنود الاستطلاع الذين

(1) رحلة ك. شاس بيف المعروف بـ ڤولني إلى مصر ترجمت إلى العربية وصدرت في طبعات عديدة. من بينها طبعة لبنانية بعنوان «*ثلاثة اعوام في مصروبر الشام*» ترجمة وتحقيق ادوار البستاني الطبعة الأولى 1949. *صادر عن وزارة التربية الوطنية والفنون.*

(2) نصائح ڤولني مذكورة في مقالة تولار المشار إليها سابقاً. تجدر الأشارة إلى أنه كان معروفاً باسم كونت دي ڤولني وقد حصل على هذا اللقب الذي أعاد نظام الألقاب بعد أن كانت الثورة الفرنسية قد ألغته. وقد تعلم العربية في دير مسيحي في لبنان وكان من اكبر واهم منظري حملة نابليون بونابرت على مصر. معروف أن ڤولني سجن في عهد اليعاقبة بتهمة التعاطف مع الملكية واشترك في انقلاب بونابرت على الجمهورية لكنه رفض أن يتولى منصباً رسمياً كوزير أو قنصل في العهد القنصلي ثم انتخب نائباً لمجلس الشيوخ من بعد وسرعان ما استقال لكي يتفرغ للكتابة وقد انتخب لاحقاً في المجمع العلمي الفرنسي وأسس جائزة حول أفضل عمل باللغات الشرقية وللمزيد من التفاصيل حول الحملة يمكن العودة إلى

Robert solé- Bonaparte à la conquete de l'Egypte Ed. du seuil. 2006 - Benoit - Méchin Bonaparte En Egypte Ed. Perrin 1997.

يتقدمـون الدوريـات القتاليـة، أو أولئـك الذيـن يـوكل إليهـم تسـديد رمايـات القصـف المدفعـي فـي الاتجـاه المناسـب. أمـا بقيـة مثقفـي حملـة نابليـون بونابـرت فكانـوا جنـوداً فعلييـن ومسـاهمين جدّيّـن فـي إقامـة مسـتوطنة هـي الأولـى مـن نوعهـا بعـد قيـام ثـورة 1789 الفرنسـية التـي كانـت تحمـل أهدافـاً أخـرى، مثـل تحريـر النـاس داخـل فرنسـا.

لم يكن ڤولني وسائر المثقفين- الجِراب في حملة بونابرت، يعبأون بالقيم التي أعلنتها ونشرتها الثورة الفرنسية، خصوصاً المبدأ القائل بحق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها. لقد شارك هؤلاء بحملة عسكرية على بلدٍ لم يعلن الحرب على فرنسا، وعلى شعب كان من المفترض أن يُقرِّر مصيره بنفسه. لم يتساءلوا عن الدوافع السياسية الداخلية للحملة ومن بينها أن تاليران أراد أن يتخلص من الضابط الشعبوي بونابرت فأرسله إلى مصر بحجة «... أن الطبيعة جعلت هذه البلاد بالقرب منا وهي تتمتع بفوائد عظيمة بالنسبة لتجارتنا، فضلاً عن أرضها الخصبة ومناخها الجميل». ثم إن شعوب أوروبا «... ستفقد، عاجلاً أو آجلاً، مستعمراتها الأميركية وعليه لن يكون للجمهورية (الفرنسية) تعويض عنها أفضل من هذا التعويض (أي احتلال مصر)»[1].

(1) لدوافـع مبنيـة علـى اعتقـاد سـاذج أو لسـوء نيـة أو خدمـة لمصالـح معينـة، يدافـع فريـقٌ مـن المثقفيـن المصرييـن عـن حملـة نابليـون بونابـرت علـى مصـر بوصفهـا مصـدراً لتحديـث هـذا البلـد ويدعـو هـؤلاء للاحتفـال الإيجابـي بهـذه الحملـة فـي ذكراهـا المئويـة. وتلاقـي هـذه الدعـوات ترحيبـاً رسـمياً فـي فرنسـا التـي لا يجـرؤ عـدد كبيـر مـن مثقفيهـا علـى ذكـر الأمبراطـور دون توجيـه سـيل مـن الانتقـادات لسياسـاته

=

لـم تَغِـبْ عـن مثقفـي الحملـة هـذه الأهـداف والوقائـع، كمـا لـم تعصمهـم فكـرة أن الحملـة هـي بمثابـة «معموديـة النـار» لبنـاء أول جيـش كولونيالـي

التدميريـة فـي الخـارج والداخـل، وذلـك فـي معـرض التبـرؤ مـن هـذه السياسـات العدوانيـة وفـي سـياق نقـد المحطـات القاتمـة فـي التاريـخ الفرنسـي.

وما يدعو للحزن في هذه المبادرة الاحتفالية أن مثقفين مصريين يستخفون بتاريخ بلادهم، ويعبثون بمحطة فاصلة في هذا التاريخ بذريعة أن نابليون خلّص مصر من نظام المماليك التسلطي والإقطاعي، ما يعني إدخال الحملة في الصراعات الداخلية المصرية أي تمصيرها وتحويل قائدها إلى لاعب داخلي لمصلحة فئة من المصريين دون أخرى، وبالتالي تبييض صفحته كمغامر عسكري قبيح وغاز حقيقي لم يتمكن من خداع مثقفي مصر من معاصري حملته فإذا به يخدع خلفاءهم بطريقة مؤسفة. ويمكن اعتبار هذا التبرير امتداداً للدفاع عن المعلم يعقوب التي شكل ميليشيا مؤيدة للفرنسيين اعتبرها مبرروا الحملة بمثابة عمل وطني مصري استقلالي وسيادي هو الأول من نوعه في تاريخها الاسلامي. معروف أن بابا الأقباط لم يعترف بهذا العمل وعاقب المعلم يعقوب بأن حرمه كنسياً فكان أن رحل مع الغزاة ومات على احدى بواخرهم.

راجع: فيصل جلول «*بين سليمان الحلبي والمعلم يعقوب» عناصر الخضوع والمقاومة في الثقافة السياسية العربية 11 الجزيرة نت . 22 -10 -2010.*

وفي فيلمه الشهير «وداعاً بونابرت» الذي موّلته وزارة الثقافة الفرنسية، رضي المخرج الراحل يوسف شاهين، وهو مثقف مصري كبير، بدور المبيِّض للحملة وقائدها، وعمّده مؤسساً لمصر الحديثة، ولكن هذه العملية لم تنطلِ على غالبية الفرنسيين الذين لم يحتشدوا في الصالات حيث عرض الفيلم. أما تاليران، مخطط الحملة وعقلها المدبر، فإنه سيرقص في قبره فرحاً بهذه القراءة السينمائية لدوافع الأمبراطور في حملته على الديار المصرية، التي ما كان لسينمائي فرنسي يحترم توقيعه أن يقترفها. هكذا انتصر نابليون على المقاومة المصرية لحملته بواسطة كاميرا مصرية بعد أقل من مائتي سنة بقليل على مغادرته مصر خلسة وإصابة حملته بهزيمة شنيعة.

عدواني بعد الثورة، سيثير الدمار في أوروبا ويشعل الحرائق والموت في البلدان التي يجتاحها، وسيتابع فيما بعد مهمته باحتلال الجزائر. وهذه الأمور التي كانت معروفة في ذلك الحين. كذلك فنحن بإزاء مثقّفين مُدركين للمهمة التي يؤدّونها.

لا نذهب إلى حدّ القول بأن مثقفي حملة بونابرت هم أسلاف المثقفين الفرنسيين الذين عملوا على نصرة الإدارة الفرنسية الكولونيالية في القرنين التاسع عشر والعشرين، ووظفوا وسائلهم المعرفية لغايات كولونيالية صريحة، لكن الأمر المؤكد أن عدداً كبيراً من هؤلاء انخرط، لأسباب قومية فرنسية، في مغامرات بلده الاستعمارية ورسم حدوداً نظرية لهذه المغامرات، على غرار ما فعل ڀول ڤاليري عندما أكد أن فرنسا وأوروبا «يجب أن تقودا ما تبقى من العالم من أجل تحقيق غايات وأهداف أوروبية» الأمر الذي كان يعني في الدعاية الكولونيالية «تحضير المستعمرات» أي استثمارها وترتيب خضوعها الدائم للمصالح والغايات الأوروبية[1].

إذا كان نصيب مصر وسوريا مستشرقاً - كشّافاً من طراز ڤولني، فإن نصيب المغرب الأقصى كان أيضاً مستشرقاً - جاسوساً، اعتُبِرَ في بلاده بطلاً وطنياً كبيراً يستحق التقدير؛ إنه الڤيكونت شارل دو فوكو الذي زار المغرب خفية ووضع نصاً، تقريراً، يمكن تصنيفه اليوم في

(1) أنظر صحيفة *لوموند* الفرنسية، 17 شباط 1996.

خانة النصوص الأمْنية المحترفة[1] وهو مثالنا الثاني في هذه المقارنة.

كان دو فوكو عسكرياً في الجيش الفرنسي، ثم أصبح راهباً فيما بعد، ويشير اسمه إلى انتساب واضح إلى طبقة النبلاء الفرنسيين. ولا يُنْكَرُ دوره في خدمة سياسة بلاده الكولونيالية بل يُعتبرُ عمله جزءاً من هذه السياسة، وهو يُبررُ هذا العمل ويفتخر به. لا قرائِنَ تؤكّد ارتباطه بجهاز مخابرات بلاده في الجزائر المحتلة في ذلك الحين من طرف الجيش الفرنسي، الذي كان يأمل السيطرة على كامل شمال أفريقيا العربية، لكن ذلك لا يغير شيئاً في الطبيعة الاستخباراتية لرحلته المغربيّة.

يتميز النص الذي أعدّه دو فوكو عن المغرب الأقصى بخصائص جاسوسية على قَدْرٍ عالٍ من الاحتراف، ويبُرهن هو نفسه على ذلك في كتابه، حيث يوضح بأنه كان يجب عليه أن يحدد خط سيره في رحلته المغربية «... في المناطق غير المعروفة» أي تلك التي لم يكتشفها أحد غيره من قبل، ولذا كان «لا بد من التنكر، لأن كبار مكتشفي المغرب، رينيه كابليه ورولفس ولتنز، كانوا يسافرون متنكرين بثياب إسلامية وهم واجهوا صعوبات بسبب اضطرارهم للتصرف كمسلمين... أما أنا فقد اخترت اللباس اليهودي، لأنه يجعلني أتجول بدون صعوبة. وقد سمح لي هذا اللباس بأن أحصل من اليهود المغاربة على معلومات مفصّلة

(1) أنظر: Vicomte Charles de Foucauld, Reconnaissance au Maroc, 1883-1884 Les Introuvables, Editions d`Aujourd`hui, Paris, 1985.

الاستشهادات المنسوبه إلى المؤلف حصرناها بين مزدوجات.

وصادقة، خصوصاً و أن هذا اللباس لا يطرح مشكلة باعتبار أن في كل البلدان يهوداً وأن هؤلاء اليهود ينتمون إلى بلدان شتى، فضلاً عن أن مرافقي اليهودي، (جاء معه من الجزائر)، هو الحاخام موردخاي أبي سرور وقد اصطحبته على نفقتي طوال الرحلة وكان يُقسِمُ في كل مكان نتجوّل فيه أنني حاخام. كما كان من مهامه أن يتدبر لي مسكناً منفرداً خلال جولاتنا بحيث أتمكن من العمل والكتابة وصياغة الملاحظات».

واستخدم دي فوكو في رحلته مُصَغَّراتٍ دَرَجَ على استخدامها الجواسيس وهي من نوع «دفتر حجمه 5 سنتم وقلم طوله 2سنتم» واستعان بـ «... قناصل (فرنسا) في المغرب، وهؤلاء كانوا على علاقة جيدة مع التجار اليهود. وكان هؤلاء عندما يكتشفون أنني حاخام مُزيّف يُخفون السر ولا يبوحون به، ويندفعون إلى إعطائي معلومات ويقدمون لي الشروحات اللازمة... وخلال رحلتي لم أُثِرْ شكوك المسلمين إلّا نادراً».

كان المغرب الأقصى عندما «اكتشفه» دو فوكو (1883م- 1884م)مقسوماً إلى قسمين: «بلاد المخزن والبلاد السائبة». كانت الأولى تحت السيطرة المباشرة لسلاطين المغرب، وكانت الثانية خاضعة لهم بصورة غير مباشرة لذا سميت بـ «السائبة». وكان يمكن للأوروبي أن يتجوَّل بسهولة في البلاد الخاضعة، أما في الثانية فكان على الأجنبي أن يتجوّل متنكراً «... لأن الناس هنا يعتقدون أن الأوروبي الذي يتجول في بلادهم ما هو إلّا مبعوث جاء للتعرف عليهم ودراسة أحوالهم، ومن

ثم التحضير للاعتداء عليهم (أي جاسوس بالعربي الفصيح). لذا كانوا يقتلون الأوروبي لصفته تلك وليس بوصفه كافراً». فـ «الناس هنا كانوا يخشون المحتل الأوروبي أكثر من خشيتهم المسيحي الأوروبي». والتعليق للسيد دو فو كو الذي يقول إنه كان ذات يوم في بلدة أخماس الواقعة بين طنجة ومكناس و«... كان الناس هنا يسلّمون عليّ ويقولون: اللّه يلعن أباك يا يهودي، لأن إسبانياً حاول قبل عشرين سنة الدخول إلى البلدة فاكتُشِف أمره وتبين أن اليهود المحليين متواطئون معه ...» .

بدأ الرحالة الفرنسي تحركه من طنجة «... لكنني غادرتها بسرعة لأنها معروفة وموصوفة كثيراً من قبل. وفي طنجة زودني الوزير أورتيغا برسائل لعملائه كي يساعدوني ويقدموا لي الحماية، وقد فعل ذلك بناء على طلبٍ من حاكم العاصمة الجزائرية السيد تيرمان».

استغرقت رحلة دو فو كو في «البلاد السائبة» في المغرب الأقصى شهوراً، جمع خلالها معلومات تفصيلية عن الطرقات والمدن والقرى والناس، ولاحظ ردود أفعالهم... وقدم وصفاً للجبال والغابات وأنواع الطيور ومراكز المياه ومواضع الثراء والفقر، والمعابر التي يمكن سلوكها وتلك التي ينبغي تجنّبها. وتضمن كتابه وصفاً للزعماء المحليين وقواتهم المسلحة ومراتبهم وملابسهم ومعانيها ودلالاتها الرمزية. وضمّ الكتاب رسوماً وخرائط، فضلاً عن وصف دقيق للعادات والتقاليد والأسلحة الموجودة في البلاد ومدى فعاليتها، (سيوف، خناجر، بنادق)، ولشعائر الناس ومزروعاتهم ولغتهم، واحتوى الكتاب على مخطط كاملٍ للرحلة مع تحديد ساعات الوصول

والمغادرة إلى الأماكن التي زارها المؤلف. ولو قُدِّر لقائد عسكري أن يتجه نحو «البلاد السائبة» لاحتلالها في ذلك الوقت لأمكنه السير بلا صعوبة على خطى المؤلف الذي يمكن لكتابه أن يكون عين المحتل ومرشده الثمين وخريطته الدقيقة ومستشاره المخلص.

كان دو فو كو يعي أهداف عمله الاستطلاعي ويعرف، لا بل يتمنى، أن يكون كتابه مفيداً لحملة عسكرية في هذه البلاد. فهو يقول صراحة في خلاصة رحلته: «... لا أحد يريد الحرب المقدسة، لكن الجهل يتحكم في سياسة القوى الأوروبية الخائفة من «أهل هذه البلاد». ولكي يبدد المؤلف خوف الأوروبيين، يطمئنهم واصفاً ردود فعل الناس المحتملة بقوله: «... يكفي أن يرفع شيخ (هذه البلاد) البيرق حتى يحتشد وراءه وبسرعة 50 ألف رجل، تحركهم نوازع النهب أكثر من النوازع الدينية. لكن يمكن أن تختفي هذه الحشود عند أول هزيمة، كما يمكنها أن تتضاعف لدى الانتصار الأول...». وبعد ذلك ما على القادة الأوروبيين الراغبين سوى تحضير حمله عسكرية ضد المغرب الأقصى والتوكل على الله وعلى معلومات «المخبر» دو فوكو..

نال المؤلف التقدير الذي يستحقه على هذا الكتاب... فقد منحه المقرر العام للجمعية الجغرافية في باريس هنري دوفيرييه ميدالية ذهبية، وقابلته المنابر الإعلامية في حينه بالمديح والثناء لأنه «جدّد المعرفة الفرنسية بتاريخ المغرب الحديث». الأمر الذي يعني عملياً،

بلغـة تلـك الأيـام، تجديـد الاسـتطلاع الـذي يسـبق عـادة حـروب السـيطرة الاسـتعمارية.

ليس مثال دو فو كو و ڤولني ومثقفي حملة بونابرت فريداً من نوعه أواستثناء في الجهود المعرفية الفرنسية المتصلة بالعالم العربي، وليس محصوراً بثقافة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فعلاقة المثقف الفرنسي المعرفية بالعرب محكومة عموماً بشروط إنتاج هذه المعرفة في فرنسا وبثقافة الرأي العام، وبالقنوات التي تنقل هذه الثقافة وتُؤطّرها وتُعيدُ إنتاجها، بما يتناسب مع تصوّر الفرنسيين لتاريخهم ولموقعهم الأوروبي والعالمي، وللأغراض القومية التي يأملون تحقيقها من خلال علاقتهم بالآخر العربي والمسلم. لكن من حسن الحظ أن تقاليد إنتاج المعرفة الفرنسية كانت تتضمن على الدوام مبادرات متمردة ومثقفين ينتجون معرفة مختلفة أو مضادة إذا جاز القول، ومثالهم في موضوعنا مكسيم رودنسون.

إن المثقفين الذين يناهضون شروط إنتاج المعرفة الفرنسية بالعالم العربي أو يتمردون عليها، يمكنهم الإفادة من المناخات الحرة والرحبة المتاحة لإنتاج المعرفة ولوسائل هذا الانتاج، لكن هؤلاء سرعان ما يصطدمون بقنوات وأطر نشر إنتاجهم، وبالتالي سرعان ما يقعون خارجها، أي في حيزٍ هامشي وغير مؤثر في المعارف السائدة؛ والأمثلة على ذلك كثيرة. أما التعايش النقدي مع شروط إنتاج المعرفة ومحاولة قولها وبلورتها بطريقة موضوعية فهي لا تقفل قنوات نشرها، ولكنها لا

تفيد من كامل طاقة هذه القنوات وبالتالي تحكم على الإنتاج المعرفي الإيجابي حول العرب بمحدودية الارتقاء وبمحدودية الموقع في التراتب الثقافي الفرنسي، وبمحدودية السلطة والنفوذ المعنوي والتأثير في الرأي العام. لذا يصعب، بنظرنا، أن يتساوى إنتاج المعرفة الاستشراقية بين مستشرقين يعملون بصدق لخدمة دولهم ومستشرق مستقل من طراز مكسيم رودنسون يعتمد معايير أخلاقية شخصية في إنتاجه المعرفي[1].

تحتل مهنة الاستشراق مكاناً مرموقاً في مؤسسات إنتاج المعرفة عن الآخر في الغرب. والراجح أن المستشرقين اليوم هم ورثة الرحالة بالأمس. وإذا كان هؤلاء قد فتحوا حقول الاستشراق، فأولئك يعملون اليوم على حرثها وبذرها وتنظيم إنتاجها. وإذا كانت هذه المهنة تقتضي بالأمس إنتاج معرفة عن الآخر الشرقي، وهو عموماً العربي والمسلم، فهذه المعرفة تُنْتَج لحساب مؤسسة، (مؤسسات)، قومية أوروبية بصورة خاصة وغربية عموماً ولكي تكون مفيدة كان عليها أن تخدم أغراض المؤسسة أما اليوم فإن شروط إنتاج المعرفة الاستشراقية تغيّرت بمقدار وبنوعية التغيير الذي طرأ على المؤسسات الأوروبية والغربية تجاه الشرق. وكما في الأمس يعمل اليوم عدد كبير من المستشرقين في مؤسسات تابعة لحكومات بلدانهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ولا يجدون حرجاً بذلك؛ فهم يلتزمون قيم

(1) راجع المقابلة معه في مجلة Revue d'Études Palestiniennes، العدد الثالث، 1995.

بلدانهم ومعاييرها الأخلاقية ويبحثون عن الارتقاء في السلّم التراتبي فيها، ويؤهلون كادرات شرقية ويربطون علاقات معها، ويشرفون على قنوات اتصال «علمية» بها، ويفخرون بعملهم المفيد لهم ولبلدانهم، ولا ندري لماذا يجب أن تكون جهود المستشرقين المعرفية مفيدة للعرب والمسلمين وغير مفيدة للبلدان التي تموّلُ إنتاجهم وترعاه وتراكمه وتُصَنِّفه في مراتب، وتمنحه تعويضات معنوية مهمة. ولا ندري أيضاً لماذا يُعاب على المستشرقين خدمة بلدانهم، فالاستعابة، بنظري، تصدر في مثل هذه الحالة عن سوء فهم أو سوء تقدير ساذج لدور المستشرق وعلاقته بثقافة بلده. لذا فإن ما يدهشني في هذه الحالة ليس إنتاج معرفة استشراقية من الطراز الذي يمثله ڤولني ودو فو كو، بل مرجعية هذا الإنتاج واعتماده في بلداننا، وبالتالي مساعدة تلامذة الاستشراق الجدد ومؤازرتهم بطريقة ساذجة[1] وتعليق أهمية ضئيلة على غيرهم كما هي الحال بالنسبة إلى رودنسون.

(1) يحصي جيل كيبيل، وهو من المستشرقين الجدد في فرنسا، تطور عدد مساجد المسلمين في هذا البلد ويتحدث عن «ضواحي الاسلام» محذراً ضمناً من هذه الظاهرة. ويندرج كتابه في إطار الدراسات الوقائية من الإسلام والمسلمين، ومن «الخطر» الكامن في تقاليدهم وعاداتهم وتسيسهم على المجتمع الذي يقيمون في كنفه. ويجد كيبيل في مصر ولبنان مريدين محليين يفتخرون بـ «إنجازاته» التي تقتصر بنظري على استسهال تشريح جثث بؤساء القرن العشرين المغاربة والسنغاليين والماليين وسائر الأفارقة المهاجرين، وتعيينهم كعدو لفرنسا وأوروبا بعد انهيار الاتحاد السوفياتي. وإذا كان من الصعب تصنيف كيبيل في خانة العنصرية الفرنسية فلعله من السهل تصنيف أعماله في خانة المجابهة مع المسلمين عموماً وليس الإسلام السياسي الأصولي وحده.

خلال إحدى جلسات الحوار مع مكسيم رودنسون خاطبته سهواً بصفة المستشرق، ثم استدركت معتذراً لكنه بادرني قائلاً: «لا عليك. فالاستشراق ليس مرضاً معدياً»، ما يعني أنه يمكن أن يمارس المثقف مهنة المستشرق دون أن يسير على خطى ڤولني أو دو فو كو، وأن يدافع عن خياره في ظل الرحابة وحرية البحث المتاحة في مؤسسات إنتاج المعرفة الفرنسية، لكن هذا الخيار المختلف مرتفع الكلفة على الصعيدين الشخصي والمهني، وقد اعتمده رودنسون عن سابق تصورٍ وتصميم، وهو يعيه منذ أن حدّد مهنته وغاياته الشخصية في ممارسة هذه المهنة: «اعتقدت دائماً على غرار الفيلسوف اليهودي ليڤي بن غريشوم، (القرن الرابع عشر)، أن مجابهة الأفكار الخاطئة هي بمثابة إعلان حرب، وبأن ذلك يقود غالباً إلى تحديد أفضل للحقيقة، وهذا ما دفعني إلى القيام بمبادرات (معينة) ونشر آراء كلّفتني غالياً وهذا ما حملني (أيضاً) على الانخراط في مجال يتجنبه، عن سابق تصوّر وتصميم، عدد من الاختصاصيين في المجال الإسلامي»[1].

من بين الأفكار الخاطئة التي تصدى لها رودنسون، والتي سببت له متاعب عديدة، تلك المنتشرة حول العرب «... لقد رأيت العرب غالباً مُحقَّرين بصورة غير عادلة، وغير مفهومين من الآخرين، الأمر الذي

(1) راجع: M. Rodinson, Le cuisinier et le philosophe , Maisonneuve, 1982

ويضم الكتاب نصوصاً أخرى حول أعمال رودنسون والنص الذي وقعه في الكتاب هو عبارة عن مطالعة تقدم بها لنيل شهادة الدكتوراه (ص 22).

جعلنـي أحـاول فهمهـم وإفهـام الآخريـن عنهـم، أي التصـدي للأسـاطير، (الخاطئـة)، المنتشـرة حولهـم عنـد الشـعوب الأخـرى »[1]. ثـم يسـتدرك قائـلًا: «... لكـن تعاطفـي مـع العـرب ليـس فئويـاً ولا أعمـى ... ومحاولـة فهمهـم لا تسـتدعي التعامـي أو المحابـاة». هكـذا قـدم رودنسـون العـرب بوصفهـم شـعباً جديـراً بالاحتـرام، كبقيـة الشـعوب، سـاهم فـي الإرث الإنسـاني وكانـت لـه أخطـاء وجرائـم، وبـرز فـي صفوفـه أبطـال كمـا بـرزت شـخصيات حقيـرة. وقـدّم «نبـي الإسـلام» بوصفـه النبـي الوحيـد الـذي ظهـر فـي «صميـم التاريـخ» فـي حيـن أن الأنبيـاء الذيـن ظهـروا مـن قبـل عاشـوا قبـل التاريـخ ولا «نملـك معلومـات كافيـة حولهـم» كتلـك التـي تتوافـر حـول النبـي محمـد حيـث إن «كل مقطـع فـي القـرآن يُذكِّـر بتاريـخ محمـد، ولا تعـدو آيـة مـن آياتـه أن تكـون مكيـة أو مدنيـة، أي أن تحتمـل تفسـيراً تاريخيـاً»[2].

إن الانطلاق في النظرة إلى العرب ونبيّهم من المنطلق البديهي الذي يقول إن العرب جديرون بالاحترام كأي شعبٍ آخر، وأن نبيّهم يتمتع بأفضلية تاريخية على غيره من الأنبياء، أمرٌ يُسببُ المتاعب لأنه يُعارض النظرة السائدة لدى المختصين في المجال الإسلامي والعربي- هذه النظرة التي تقوم على تحقير العرب ونبيّهم. ولعل معارضة التيار السائد في هذا المجال، وفي كل مجال، تفترضُ تصميماً

(1) راجع: M. Rodinson, Les Arabes, P.U.F., 1979,P. 11.

(2) المصدر نفسه، ص 12 -11

شخصياً واستعداداً لتحمّل النتائج التي تنجم عن الخيار المخالف، ومن ضمنها الاكتفاء بموقع المعارض ذي الأهمية المعنوية المحدودة طوال حياة مهنية وشخصية كاملة. ويزداد الإحساس بالغبن المعنوي في حالة رودنسون عندما نعلم أن العرب الذين انتصر لهم الباحث، دون محاباة أو تزلف، لم ينتبهوا تماماً إلى هذا الانتصار، ولم يبادروا إلى تقدير أهميته والإشارة إليه وإلى دوره بما فيه الكفاية[1].

عندما يؤكد رودنسون على خياره المختلف والمعارض للتيار المذكور فإن هذا التأكيد ليس مفترضاً ولا وهمياً، بل إنه مبني على مواقف ووقائع تستحق الذكر، من بينها ما يتصل بنظرته إلى القضايا العربية ومنها ما يتعلق بحياته الخاصة والسياسية وبأصله اليهودي؛ وفي ما يلي نعدد بعض أبرزها:

1- دعا رودنسون، اليهودي الأصل، إلى إقامة دولة ثنائية القومية في فلسطين قبل تأسيس دولة إسرائيل، ورفض الإقامة في الدولة العبرية رغم أن أبويه قُتلا حرقاً في المعسكرات النازية. واعتبر في كتاباته أن الحركة الصهيونية مسؤولة عن تهجير اليهود العرب من بلدانهم. وصرح مراراً أن لا شيء يربطه باليهودي البولندي أو المجري المقيم في إسرائيل سوى اللغة، وأنه فرنسي قبل كل شيء آخر.

(1) يؤدي تكوين النخب الثقافية في لبنان وفي عدد من الدول العربية إلى تنظيم وضبط انتشار النصوص والأفكار الواردة من الخارج بصورة واعية أو عفوية- لا فرق - الأمر الذي يفضي إلى تحجيم النصوص المضادة لتكوين هذه النخب وترويج النصوص الملائمة لوعيها المصنوع في الخارج.

2 - أثناء إقامته في صيدا في العام 1941 لم يرَ غضاضة في قبول تدريب بعض الطلاب القوميين العرب على استخدام السلاح وفنون القتال استعداداً للمشاركة في حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق. لقد فعل ذلك مضطراً لكنه كان قادراً على الرفض والامتناع.

3 - كان رودنسون، كعددٍ كبير من المستشرقين الفرنسيين، موظفاً في الإدارة الكولونيالية في لبنان، لكنه لم يستخدم اختصاصه في خدمة هذه الإدارة إلا مرة واحدة وبصورة مخففة للغاية، عندما ألف كتاباً لطيفاً يحمل عنوان جهود فرنسا الأثرية في لبنان وسوريا، ووقّعه باسم مستعار هو جان رونسان[1]. ويتحدث الكتاب عن اكتشافات أثرية قام بها الفرنسيون في لبنان. ولأنه لم يكن يطمح إلى الارتقاء في الإدارة الكولونيالية، لم يضع مؤلفات ولم يكتب مقالات مفيدة لهذه الإدارة، ولم يسْعَ لاعتلاء مراتبها. أكثر من ذلك، رفض الباحث منصباً دبلوماسياً واختار العمل في المكتبة الفرنسية عشية جلاء الفرنسيين عن لبنان.

كان رودنسون يتمتع بمواهب باحثٍ مجرب ويملك تقنيات البحث والتأليف والمعرفة، فضلاً عن إجادته اللغة العربية. وكان بوسعه توظيف هذه الوسائل في خدمة طموح إداري معين، لكنه امتنع من ذلك مُحدِّداً لنفسه أهدافاً أخرى لا تفيد في الارتقاء الإداري، لا بل تُهَمّش صاحبها

(1) راجع جهود *فرنسا الاثرية في لبنان وسوريا*، تأليف جان رونسان، دار المكشوف، بيروت، الطبعة الأولى 1943 والترجمة ليست لقدري قلعجي كما ذكر رودنسون في مروياته، وإنما لالياس أبو شبكة.

وتسبب له المتاعب، ورودنسون لم يكفَّ يوماً عن التعرض للمتاعب بسبب خياره المستقل وحرصه على ضبط سلوكه وفق معايير «شرف المثقف» التي تَمَسَّك بها طوال حياته، وما زال يتمسك بها رغم تجاوزه سن الثمانين.

4 - بعد عودته إلى فرنسا وانخراطه في العمل الجامعي، اختار رودنسون، مرة أخرى، اختصاصاً لا يفيد صاحبه في الارتقاء الإداري، ولا يجبره على تقديم تنازلات لمصلحة الإدارة الجامعية. فقد عين لنفسه إطاراً مهنياً هو العمل في نطاق اللغتين الأثيوبية والحميرية، (العربية الجنوبية)، ولم يختر اللغة العربية مع علمه التام أن اختياره العربية كان سيفيده أكثر في رفع تراتبيته الإدارية.

في السياق نفسه لم يوظف سنواته اللبنانية السبع في مهنته كمستشرق وباحث في الشؤون العربية والإسلامية، متخلياً بذلك عن ذريعة ثمينة جداً بالنسبة إلى المستشرقين الذين غالباً ما يعمدون إلى تدعيم نفوذهم المعرفي الشخصي بأدلة مستمدّة من معايشتهم المباشرة لحقول دراساتهم أو أبحاثهم.

لقد حصر رودنسون نطاقه الإداري الجامعي في حدود ضيقة؛ فهو مصدر للزرق بالنسبة إليه وليس للارتقاء، ولعل ما كان يبحث عنه يمكن العثور عليه في كتاباته وأبحاثه، وهو ارتقاء أراده معنوياً ومن نوع مختلف وغير مؤذٍ، لا بل يحمل فائدة كبيرة للعرب والمسلمين.

5 - لا يعتقد رودنسون بالاختصاص الأبدي أو المطلق وإنما

المحدد بموضوع وبزمن قصير. وعليه كان يمكن لسنواته اللبنانية أن تشكل قاعدة لعملٍ ما لا يكون معه المؤلف اختصاصياً في الشؤون اللبنانية وإنما متدخلاً فيها من ضمن عمله الاستشراقي. لكنه رفض مثل هذه المبادرة لأنها تفترض «العودة إلى لبنان من جديد وصرف وقت إضافي، والانشغال عن مواضيع أخرى كنت أهتمّ بها» بحسب تعبيره. هنا تبرز، مرة أخرى، الأولويات الأخلاقية لدى المثقف وتتفوق على جاذبية الذريعة ومغرياتها.

6 - عندما كان مكسيم رودنسون ماركسياً وشيوعياً ملتزماً بالحزب الشيوعي الفرنسي، خلال إقامته في لبنان، لم يغلّب التزامه على نزعته الاستقلالية، لذا كان يعطي دروساً ومحاضرات في الماركسية لا تدخل في صميم المشروع الماركسي الستاليني، بل كانت تثير حفيظة خالد بكداش الذي أخلص للسوفيات طوال حياته وبلا شروط. ما يعني أيضاً وأيضاً أن النزعة الاستقلالية لدى الرجل كانت أقوى من الالتزام الحزبي والأيديولوجي الصارم، أي الخضوع للمؤسسة الحزبية والانخراط فيها والانغلاق على ما عداها[1].

تُفصحُ هذه المؤشرات، وهي ليست حصرية، عن سيرة شخصية ومهنية حدّد رودنسون مسارها عن سابق تصوّر وتصميم، وارتضى النتائج المترتبة عليها. لم يُنْتِج معرفة عدوانية ضد العرب والمسلمين

(1) راجع الفصل الخاص بالشيوعيين نيقولا الشاوي، وخالد بكداش وفرج الله الحلو صفحة 119 وما بعدها.

ولا معرفـة مُجابهـة لهـم أو متواطئـة معهـم. لـم يتخـذ مواقـف سياسـية مناهضـة للعـرب والمسـلمين ولـم يتبـنَّ مواقـف مؤيـدة لهـم، ظالميـن كانـوا أم مظلوميـن. لقـد صـرف حياتـه متصديـاً لـ «الأفـكار الخاطئـة» فـي الموضوعـات التـي تناولهـا ومعظمهـا يتصـل بالعـرب والمسـلمين، وتوخـى «تحديـداً أفضـل للحقيقـة» حولهـم؛ فهـل اسـتقبل العـرب جهـوده بمـا يليـق بهـا؟ وهـل قـدّروا هـذه الجهـود بمـا تسـتحق مـن عنايـة وتقديـر؟

لم تصادف أعمال رودنسون انتشاراً استثنائياً في العالم العربي والإسلامي، ولم تَلْقَ العناية التي تستحقّها، وبالتالي لم يكن حظه مع العرب أفضل بكثير من حظه مع مواطنيه الفرنسيين، لا بل يمكن القول إنه يتمتع بمكانة جامعية واستشراقية مرموقة في بلده تتيحها تقاليد التعدد وحرية البحث والجدال الثقافي؛ وقد دافع بجدارة عن أعماله ومواقفه، ولم يُدْعَ قط للدفاع عنها ولتبريرها في المنابر العربية والإسلامية.

لا ندري إذا كانت كل أعماله مترجمة إلى العربية، لكن ما نعرفه هو أنها ليست أعمالاً مرجعية كبقية أعمال الرحالة والمستشرقين المعروفين. والراجح أن محدودية انتشارها ومحدودية تناولها مسألة لا تتصل بقيمتها الحقيقية بقدر اتصالها بوسائل وقنوات الانتشار عندنا وبطرق عمل مؤسسات إنتاج المعرفة في العالم العربي.

تنتشـر أعمـال المؤلفيـن الأجانـب فـي بلداننـا، وبصـورة خاصـة المستشـرقين منهـم، عبـر قنـوات ثقافيـة تربطنـا بالغـرب عمومـاً، وفـي

المثال اللبناني بالمؤسسات والثقافة الفرنكوفونية. والراجح أن هذه القنوات خاضعة لشروط سياسية ولمؤثرات إعلامية تتيح انتشار مستشرقين بصورة منظمة وعلى نطاق واسع، إذا كانوا يحوزون مواصفات الانتشار في هذه القنوات، ولا تتيح مرور مستشرقين آخرين لا ينتجون معرفة «مفيدة»، هكذا، مثلاً، يغدو المستشرق دومينيك شوڤالييه مرجعاً إجبارياً في الإنتاج المعرفي في جامعاتنا، ويظل مكسيم رودنسون مرجعاً هامشياً أو ثانوياً، ما يعني أن مسألة المرجعية والانتشار لا تتحدد عندنا بصورة حاسمة وإنما في الخارج، وما يعني أيضاً أن النخب الجامعية، وربما الثقافية، في بلداننا لا تحوز قدراً كافياً وضرورياً من الاستقلال في النظر والبحث يتيح لها تقديم أعمال ومؤلفات الآخر الغربي وتصنيفها وفق مقاييس مفيدة وغير مفيدة لنا، ناهيك عن تحديد ما هو مفيد وما هو غير مفيد مبدئياً في هذه الأعمال، الأمر الذي يفترض إعادة نظر شاملة وريما اعلان حروب كثيرة لا يبدو أن أحداً مستعدٌ لإعلانها في ضوء المعطيات الثقافية الراهنة والسائدة عندنا.

هكذا مرت أعمال مكسيم رودنسون مرور الكرام على الكثير من البلدان العربية، باستثناء لبنان حيث أثارت انتباهاً نسبياً وخصّه أحد الباحثين بكتاب مستقل.

يُقدّمُ الكتاب العربي الوحيد - على ما نعلم - الذي تناول أحد أعمال مكسيم رودنسون دليلاً على ندرة الاهتمام بهذا المستشرق

الـذي صـرف عمـراً بالنظـر والبحـث فـي قضايـا العـرب والمسـلمين، كمـا يقـدّم دليـلاً علـى نـوع التقديـر الـذي يُحيـط بالمؤلـف وبأحـد أعمالـه علـى الأقـل.

يؤكد الدكتور الراحل حسن قبيسي في كتابه رودنسون ونبي الإسلام أن دراسته لكتاب المستشرق عن محمد «... لم تكن إلّا ذريعة. فقد توخيت من وراء هذا البحث أن أقدم لقراء العربية دراسة نموذجية تبين كيف يعالج منهج بعينه ظاهرة دينية محدّدة»[1]. والسبب الثاني لهذا الاختيار هو أن «... شخص رودنسون بالذات مدعاة أخرى لاختيار كتابه؛ فمن المعروف أن هذا المفكر الكبير علاّمة متعدّد النشاطات الفكرية، فهو بمثابة اجتماعي ومستشرق تعمق بدراسة التراث الإسلامي فضلاً عن كونه عليماً بلغات سامية عدة وله أبحاث في إثنولوجيا شعوب الشرق الأوسط، بالإضافة، من جهة أخرى، إلى تمكنه من الماركسية كمنهج بحث بوصفه من أهم مفكريها»[2].

ويأخـذ الكاتـب علـى رودنسـون اعتبـاره النـص القرآنـي «أساسـاً متينـاً لا شـك فيـه» «وعـدم ذكـره لنـا طريقـة معينـة فـي فهـم النـص القرآنـي الأمـر الـذي يعتبـره بعـض الباحثيـن مهمـة لـم تسـتكمل بعـد». ثـم يقـول إن رودنسـون

(1) راجع: حسن قبيسي، رودنسون ونبي الإسلام، مقدمة حول التفسير المادي - التاريخي لنشأة الإسلام، دار الطليعة، حزيران/يونيو 1981، ص 7.

(2) المصدر نفسه، ص 8.

«أهمل الجانب الأسطوري» في القرآن وأنه استنسب ما يناسبه من سائر المراجع التراثية مع اعتباره أنها «مشكوك بها كلها»[1].

ومن بين مؤشرات إهمال «الجانب الأسطوري» تغييب رودنسون لواقعة تدخل الملائكة في معركة بدر، وهو جزء لا يتجزأ من الواقعة بحسب الدكتور قبيسي الذي يرى أن المستشرق أهمل أيضاً واقعة الإسراء والمعراج «لذا يأتي درسه للظاهرة الدينية مجتزأً ومحوّراً» .

ويعترض قبيسي على تفسير رودنسون للحرب بين القبائل وردّها لأسباب اقتصادية، معتبراً أنها «مسألة سياسية بالدرجة الأولى»[2]. ويناقضه في تأكيده أن الدين لم يلعب دوراً في تنظيم الحياة الاجتماعية عند الجاهليين، ويرى قبيسي مع الجاحظ أن «دين الخوافي» كان يلعب مثل هذا الدور. وينفي الكاتب حاجة الجاهليين إلى الدولة مقابل تأكيد رودنسون على أنها «حاجة العصر العظمى وأن التقدم كان هدفاً منشوداً ومرغوباً من العرب الجاهليين»[3] ويخلص إلى أن عمل رودنسون تبريري لـ «نشأة الدولة الإسلامية»[4].

من جملة هذه الملاحظات، وهي جزء مما ورد في الكتاب، يخلص قبيسي إلى نتيجة كبيرة واعتراض أساسي على رودنسون مفاده أن النقض الأساسي الذي جعل المستشرق يقع في «التبرير» وليس

(1) المصدر نفسه، ص 15 .

(2) المصدر نفسه، ص 18 - 20.

(3) المصدر نفسه، ص 20 - 23.

(4) المصدر نفسه، ص 22 - 23.

«التفسـير» هـو اعتمـاده المنهـج المـادي فـي البحـث، وبالتالـي طغيـان الأيديولوجيـة علـى هـذا البحـث.

في كتابه رودنسون ونبي الإسلام يستند قبيسي في مراجعه ومرتكزاته التي بنى عليها ملاحظاته المذكورة وغيرها، إلى كلود ليڤي ستروس وآخرين، معتبراً أن مكسيم رودنسون لم يكن علمياً في تبريره واستنتاجاته، (بعضها)، على الرغم من نياته الحسنة. ويمس هذا الاعتبار نقاشاً حامياً في فرنسا حول الطابع العلمي لـ «العلوم الإنسانية» شارك فيه ستروس وخصمه القديم - الجديد، روبير جولان؛ فالأول يؤكد أن صفة العلوم في «العلوم الإنسانية»، ليست سوى مظهرٍ مجاملٍ، ومديحٍ لهذا المجال «الإنساني»، في حين يعتمد جولان الرياضيات في أبحاثه الاجتماعية والتاريخية، لتأكيد استنتاجاته ودعم آرائه ومواقفه ومن بينها هجومه المستمر على ستروس؛ (توفي جولان في خريف العام 1996).

وقع الدكتور قبيسي في ملاحظاته على كتاب رودنسون المذكورفي الاستنساب، أي فيما أخذه على المؤلف، وفيما يمكن أن يأخذه كاتب على كاتب آخر. ذلك أن الاستنساب هو جزء من الانحياز والاختيار بين مجموعة من العناصر والموادّ المتصلة بموضوع معيّن. ولعل الذهاب في الاستنساب «العلمي» حتى النهاية كان يستدعي انحياز الدكتور قبيسي إلى «رياضيات» روبير جولان في دحض واقعة «تدخّل الملائكة» في معركة بدر، أو نفي رغبة الجاهليين العرب في «التقدم»

والتطلع إلى إقامة الدولة أو في النظر إلى أسطورة النص القرآني... إلخ.

وما يأخذه قبيسي على رودنسون في كتابه عن نبي الإسلام هو عدم تصديه الكامل ربما للأسطورة وامتناعه عن نفيها وتسخيفها؛ وهو أمرٌ كان يمكن أن يكون أسهل بكثير من تبريرها والدفاع عنها في مواجهة خصومها وأعدائها الكُثُرُ في فرنسا والغرب، عموماً. وكان يمكن أن يعود على المستشرق بالثناء الإعلامي في باريس وبيروت على السواء.

في نصه حول نبي الإسلام، وفي نصوصه الأخرى حول العرب والإسلام، سعى مكسيم رودنسون إلى مواجهة الأساطير والمغالطات المنتشرة عن العرب والمسلمين في بلاده، رائده في ذلك الوصول إلى «تحديد أفضل للحقيقة» دون محاباة أو تمجيد وبدون عدوانية. واستخدم وسائله المعرفية بطريقة مفيدة للعرب والمسلمين، ومتناسبة مع نظرته وأهدافه الإيجابية في البحث والدراسة والتأليف.

ويجد القارىء هذه الصفات في مرويات رودنسون عن لبنان واللبنانيين خلال سنوات الاستقلال 1940-1947، خصوصاً ما يتصل منها بالاستعمار الفرنسي وبالصراعات الفرنسية - الفرنسية خلال تلك الفترة؛ كما يجد ملاحظاته حول الإدارة الفرنسية في لبنان وسوريا، وموقفه من نشوء الدولة الإسرائيلية وضحاياها الفلسطينيين والعرب. ويمكن للقارىء المهتم أن يعود إلى كتابه الوحيد الذي أعده حول جهود فرنسا الأثرية في لبنان وسوريا، والذي وقعه باسم مستعار،

ليكتشف حياده وثناءه على جهود الحكومتين اللبنانية والسورية في هذا المجال، وامتناعه عن تمجيد الإدارة الفرنسية واستخلاص أهداف عظيمة من تلك الجهود.

بين المستشرق الكشّاف أو المستطلع و المخبر أو الجاسوس، وبين هذا الحشد الكبير من الجنود المستشرقين في الإدارة الكولونيالية، نشأ وعاش باحث مستشرق مختلف، لم يتذرع بلبنان واللبنانيين وبالعرب والمسلمين لخدمة الإدارة الكولونيالية التابعة لبلاده، أو لخدمة مشروع الدولة الصهيونية المؤسّسة على أساطير يهودية، وقاوم مغريات الارتقاء الإداري والمعنوي دون أن يثير انتباهنا بما فيه الكفاية ودون أن نشير إليه بما يكفي من التقدير والاحترام.

عقدنا رهانات كثيرة على هذا النص، من بينها التعبير عن احترامنا لمكسيم رودنسون وتقدير أعماله حق قدرها وربما بمفعول رجعي.

ف. ج

التَّشريق صُدْفَة، التَّشريق عَمْداً

«عشتُ في لبنان أثناء الفترة الواقعة بين 1940-1947. لم أختر هذا البلد عن قصد. بل تجمّعَت ظروف كثيرة، بمَحْض الصُّدْفة، جعلتني أقيم فيه. لا بد من الإشارة إلى أنني خِرّيج معهد اللغات الشرقية؛ منه حصلتُ على دبلوم في اللغة العربية وهي اللغة السائدة في لبنان وسوريا. كان أستاذي المونسنيور اللبناني ميشال فغالي. علّمَني أيضاً أستاذ لبناني آخر هو ميشال بيطار. لم يكن فغالي عبقرياً لكنه علَّمني أشياء كثيرة، أما بيطار فقد كان أكثر إفادة لي ولزملائي. وظلّ بيطار مقيماً في فرنسا وشارك في المقاومة الفرنسية للاحتلال الألماني، ومات في المعسكرات النازية. وممّا أَذكره أنه استخدم في تعليمنا كتاباً صادراً عن المطبعة الكاثوليكية في لبنان وضعه المونسينيور حرفوش.

أنهَيْتُ دراسة اللغة العربية الفصحى والعامية مع أستاذيّ وغيرهما في السنتين 1936-1937 لكني وجدتُ صعوبة في تطبيق ما تعلمتُهُ، فالسبيل إلى ذلك هو السفر إلى بلد عربي وكان السفر صعباً بالنسبة إلي لأنني لا أملك نفقاته. لم أزُرْ أي بلد عربي من قبل. والعرب

الذيـن عرفتُهـم هـم بعـض المغاربـة الذيـن يعيشـون فـي باريـس والذيـن كنـتُ ألتقيهـم فـي بعـض المقاهـي خـلال أوقـات محـدودة. أحدهـم، وهـو جزائـري الأصـل، سـاعدني علـى ترديـد بعـض الجمـل العربيـة والنصـوص، ولكـن ذلـك لـم يكـن كافيـاً بطبيعـة الحـال للتعمـق فـي تطبيـق مـا تعلمتُـه.

كان عليَّ إذن أن أنتظر الفرصة السانحة وهذا ما تم في ربيع العام 1940 مع اندلاع الحرب.

عندما وقَعتِ الحربُ خضعتُ للتجنيد الإجباري كما كل الفرنسيين الذين تنطبق عليهم شروط التجنيد. انتظمت جندياً من الدرجة الثانية في نهاية العام 1939، وعملتُ في بعض المدن الفرنسية. خطر لي قُبيل التجنيد أن أستفيد من انخراطي في الجيش لتعميق معرفتي باللغة العربية، وصادف أن المستشرق المعروف لويس ماسينيون كان مُجَنَّداً كضابط في وزارة الحرب فطلبت منه أن يُلحقني بوحدة عسكرية يتكلم أفرادها العربية.

علمتُ في أيار/مايو 1940، خلال وجودي في إحدى ثكنات مدينة تور، أن هناك نية لإرسال 10 جنود و 3 ضباط إلى سوريا وأن قراراً بهذا الشأن قد اتخذ. كان قراراً غبياً لأن الجيش الألماني كان قد وصل حينذاك إلى منطقة السّوم (La Somme)، شمال فرنسا، وكان يتقدم سريعاً إلى تور، ما يستدعي الحفاظ على كل القوات العسكرية لمواجهته. لكن القيادة العليا رأت أنه لا بد من إرسال وحدة من 13 شخصاً إلى حمص لتأمين الارتباط مع قوات بولونية متمركزة في هذه المدينة .

معروف أن ألمانيا اجتاحت بولونيا في العام 1939 فهرب عدد كبير جداً من البولونيين إلى الخارج، وتم تجميعهم في فرنسا وإنكلترة والشرق الأوسط. كانوا وطنيين متحمسين لمواصلة المقاومة ولمتابعة النضال ضد ألمانيا النازية. وقد انخرطوا في ثلاثة ألوية توزَّعتْ على فرنسا وإنكلترة وسوريا. وكان هناك اتفاق بين فرنسا وبولونيا الحرة ينص على أن تُزوِّدَ باريس الألوية البولونية بـ«معتمديات عسكرية» وتموينية. في ضوء ذلك صدر قرار القيادة العسكرية الفرنسية بإرسال 13 جندياً وضابطاً من تور إلى حمص والذي يدخل في هذا الإطار.

كان الوضع في المتوسط دقيقاً للغاية، ذلك أن إيطاليا التي ظلت محايدة حتى بداية حزيران/يونيو، كانت في طريقها لإعلان الحرب على الحلفاء. وكان هؤلاء يعرفون أن إعلان إيطاليا الحرب قادم بسرعة وأنه سيؤثر حتماً في الإبحار في المتوسط. وهكذا كان، إذ أعلنت إيطاليا الحرب على الحلفاء في 10 حزيران/ يونيو وصار عبور البحر المتوسط بعد ذلك التاريخ صعباً.

طُرِحَتْ مشكلة حقيقية في أيار/مايو بسبب امتعاض الجنود العشرة المكلفين بالذهاب إلى سوريا وعدم رَغْبتهم في ترك فرنسا. علماً أن ما أصاب تور، وسواها من المدن الفرنسية، من جراء القصف المدفعي الألماني ومن اجتياح القوات الألمانية كان ليدفع أيّاً كان إلى اختيار أيّ «جحيم» آخرَ. كان بين الجنود المرشحين نفر يُدعى كازانييه بدا الأكثر ارتعاباً لفكرة الذهاب إلى الشرق الأوسط لظنه أن سوريا تقع بين بلدان

متوحشة وبدائية. علمتُ بالأمر فزرتُ سكرتير الكابتن المسؤول عنه وقُلت له: لقد عرفتُ أن الجنود المقرر إرسالهم إلى سوريا يحتجّون على فكرة الذهاب إلى هذا البلد؛ ألا تستطيع أن تستبدلني بأحدهم؟ فأنا لا أطلب شيئاً آخر سوى الخدمة هناك... فوافق على طلبي فوراً وغادرتُ في 28 أيار/مايو 1940 على متن آخر باخرة توجهت إلى بيروت قبل أن تُعلن إيطاليا الحرب بأقل من أسبوعين!

مكثت ثلاثة أيام في بيروت - حيث مقر القيادة المركزية - ومنها انتقلت بقطار«أثري» إلى رياق فحمص. سادت الرحلة أجواء لطيفة لأن الضباط الثلاثة في وحدتنا كانوا مسرورين للخدمة في المنطقة. في حمص سَأَلَنا الكولونيل المسؤول: ماذا ستفعلون هنا ولماذا جئتم؟ فأكدنا له أن مهمتنا تقضي بأن نشكّل «معتمدية عسكرية» لدى اللواء البولوني المتمركز في حمص استناداً إلى الاتفاق الفرنسي - البولوني بهذا الشأن؛ ولكننا سرعان ما اكتشفنا أن البولونيين لا يحتاجون إلينا فأحالنا على القيادة في بيروت لعرض الأمر على المسؤولين فيها.

كانت قيادتنا في بيروت منشغلة بأمور أهم تتمحور حول الصعوبات والمشاكل العديدة الناتجة من هزيمة فرنسا واحتلالها أثناء الهجوم الألماني في شهر حزيران/يونيو 1940. في هذه الفترة ساد ارتباك شديد جعل من الممكن لعدد من العساكر الفرنسيين في سوريا ولبنان أن يختاروا ما يناسبهم، وقيل لهؤلاء الثلاثة: إفعلوا ما تشاؤون شرط أن تقوموا بعملٍ مفيد. دققوا مثلاً في حسابات اللواء البولوني!

عاد الضباط إلى حمص وقالوا للبولونيين: سندقق في حساباتكم... فقال هؤلاء: يمكنكم أن تفعلوا ذلك إذا أردتم لكن حساباتنا باللغة البولونية فهل لديكم من يعرف لغتنا؟... ولم يكن أحد يعرف هذه اللغة، وتبين فيما بعد أن مهمتنا غير فعالة فتفرقت الوحدة. كنت أنا وجندیان آخران ننتمي، عموماً، إلى اليسار وكنا عاجزين عن معرفة ما سيحدث، وازدادت حالتنا اضطراباً عندما علمنا أن البولونيين سيتوجهون إلى فلسطين لمواصلة نضالهم، إذا ما ساءت الأمور في حمص.

اتصل بنا راهب يسوعي سابق ودعانا للعمل في الدعاية وبث الحماسة من أجل الالتحاق بقوات الجنرال ديغول التي تقاتل إلى جانب الإنكليز في فلسطين. لم تَرُق لنا الفكرة لأننا لم نكن نعرف من هو ديغول بدقة في حينه، خصوصاً أن أقاويل كثيرة انتشرت حول شخصيته تقول إحداها إنه ملكي.

أذكر من تلك الفترة في حمص أن البولونيين تحمسوا للذهاب إلى فلسطين، وكانوا يرددون بشيء من المفاخرة أنهم كانوا يضربون اليهود في فرصوفيا قبل أشهر وسيذهبون إلى فلسطين التي يقيم فيها عدد من اليهود!

وما زلت أذكر جيداً أن الفوضى عمّتْ وانتشرت، وصار كل فريق يتصرف على هواه، ومثال ذلك أن أفراداً من الفرقة العسكرية الأجنبية الفرنسية (Légionnaires) قرروا الهرب والذهاب شمالاً إلى الصحراء للسرقة وفرض الخوة على المارة، لكنهم نسوا أنهم يحتاجون إلى

المحروقـات فمـا إن توغلـوا فـي الصحـراء حتـى نفـد الوقـود مـن سـياراتهم واضطـروا للعـودة سـيراً علـى الأقـدام.

رأينا، نحن الجنود الثلاثة، أنه من الأفضل البقاء في سوريا أو لبنان وعدم الانتقال إلى فلسطين إلّا إذا وقع مكروهٌ ما. لكن المشكلة أن القيادة العسكرية لم تكن تعرف ماذا تفعل بنا إلى أن وجدَت أننا يمكن أن نساهم في توزيع التموين في دمشق. وهكذا بدأنا العمل في هذا المجال. ولم يكن هذا العمل بالمهمة الصعبة.

زاد تمكّني من اللغة العربية المحلية في حمص ثم في دمشق أثناء عملي في قسم التموين، ومن خلال العلاقات اليومية مع التجار. لقد عملت يومياً مع شرطي محلّي وكنا على اتصال بمقدّم سوري لكن المسؤول الأعلى عن التموين كان فرنسياً.

كان دورنا في قسم التموين في دمشق يقضي بتوزيع المواد الأولية على الناس ليس مباشرةً وإنما بواسطة أصحاب المحال التجارية، (الدكاكين)، بحسب أوامر سلطات الانتداب. وكان للتجار مصلحة حقيقية في إقامة علاقات حسنة معنا، وعليه كانوا يلاطفوننا عندما ننتقل من سوقٍ إلى أخرى ويقدمون لنا الحلويات.

أذكر أنني كنت أحبّ صنفاً من الحلوى المحلية يُسمّى «عجوة»، تعودت شراءه من الباعة المتجولين في الشوارع. حاول أحد الباعة ذات يوم فرض سعر خاص علي فرفضت وأعطيته بضعة قروش وقلت له خذها ولا تناقش. مارست عليه سلطتي الكولونيالية...

ثَمَّةَ مَنْ يقول إن التجار العرب يسرقون الزبائن. أعتقد أن هذا الاتهام ليس قابلاً للتعميم؛ فالتجار الذين يسرقون موجودون بين العرب وبين سواهم من الشعوب. وهنا أذكر أن صائغاً سورياً كان يصوغ الخواتم ويبيعها في الشوارع صَكَّ لي خاتماً باسمي ما زلت أحتفظ به حتى الآن. وعندما سألته عن الثمن عرفت أن ما يطلبه أقل مما يستحق فأحببتُ أن أُكرم هذا التاجر فأعطيته قرشين ونصف القرش أكثر مما طلب ثم مشيتُ، ولكنه رفض ذلك وجرى ورائي وأصرّ على إعادة القسم الإضافي قائلاً بعناد: «أنا لا آخذ أكثر من السعر المطلوب». ولو كان هذا التاجر سارقاً لأخذ المبلغ كاملاً ولطلب ربما أكثر منه.

بين تجّار دمشق اختلافات كبيرة كما هي الحال بين تجار العالم في كل مكان، ولا يجوز النظر إليهم نظرة مُقَنَّنة وموحدة. كنت أعرفُ حلوانياً مختصاً بصناعة أقراص العجوة المتمرة، يعمل بالقرب من مركز التموين التابع لنا. كنا، نحن الجنود، لطفاء معه فبادلنا اللطف ونشأت بيننا علاقة صداقة لدرجة أننا كنا نذهب بعد الدوام إلى متجره لمساعدته على عجن التمر وكان بالمقابل يُقرضنا ثمن الأقراص وقت الحاجة ونرده إليه فيما بعد، وكنا نمازحه ويمازحنا.

ذات يوم جرى بيننا وبينه ما يشبه الصَّدْمة الثقافية. قررنا أن نتصور للذكرى مع هذا الحلواني، وبما أننا كنا نقبض راتباً ضئيلاً للغاية ولا نملك بالتالي الكثير من المال، فقد اتفقنا أن نتقاسم ثمن الصورة، فيدفع كلٌّ منّا حصة معينة، بما في ذلك صديقنا الحلواني.

لم يَرُق الأمر له واعتبر أننا نهينه وغضب كثيراً. حاولنا أن نشرح له فيما بعد ظروفنا وكيف أننا مرتبطون بفصيلة عسكرية صغيرة في بيروت، وأن رواتب أفراد الفصيلة لا تفيضُ عن مصاريفهم الضرورية إلّا قروشاً قليلة، حاولنا ذلك مرات عديدة من دون جدوى، وظلّ على خلاف معنا حتى نهاية إقامتنا في دمشق وهذا أمر يدعو فعلاً للأسف.

كانت إقامتي في دمشق غنية جداً رغم قصرها، وأحتفظ منها بذكريات طيبة لست نادماً على شيء منها. ودمشق مدينة عجيبة، أبديتُ اهتماماً بزيارة معالمها خلال أيام الآحاد برفقة جنديين آخرين. كنا نحن الثلاثة نتمتع بثقافة معينة ويهمنا التعرف على المحيط. زرتُ الجامع الأموي وأسواقه مراراً وترددتُ كثيراً إلى قصر العظم ذي الهندسة التركية حيث كان في هذا القصر معهد فرنسي للدروس العربية يديره السيد لاووست الذي كان يتحدث العربية جيداً والذي كنت أزوره باستمرار.

وعلى الرغم من اهتمامنا بالمدينة فإن ظروف عملنا لم تسمح بأن نكون على تَماسّ قوي مع الوسط الثقافي السوري لنتعرف عن كثب على ثقافة الناس. رأينا وقابلنا أشخاصاً ينتمون إلى طوائف مختلفة. كانوا يتناولون طوائف بعضهم البعض بالكثير من السوء والأوصاف التي تدل على عدم التفاهم.

أمضيت في دمشق ثلاثة أشهر فقط إثر استسلام فرنسا في حزيران/ يونيو 1940، بعدها كان يجب أن نعود إلى الحياة المدنية. وكان الموعد

المقـرر لذلـك هـو تشـرين الثانـي/ نوفمبـر مـن العـام نفسـه. وبمقتضـى هـذا الإجـراء عـاد المُسـرّحون إلـى فرنسـا مـا عـدا أولئـك الذيـن يمكنهـم أن يثبتـوا أن لديهـم عقـود عمـل محليـة فـي البلـدان التـي سُـرِّحوا فيهـا. بالطبـع أحببـت أن أبقـى فـي المنطقـة، سـيّان عنـدي مدينـة وأخـرى؛ وقـد اخـترت بيـروت بمحـض الصدفـة ولـو توافـر لـدي عمـل فـي دمشـق لاخترتهـا.

بدأت البحث عن عمل في دمش في صيف العام 1940. لكن ذلك كان صعباً للغاية، علماً أن العمل الوحيد الذي أجيده هو تعليم الفرنسية. وعندما سألت عن احتمال وجود مركز شاغر في مدارس دمشق، قيل لي إن الأماكن كلها قد شغلت وانتهى استخدام الأساتذة الجدد اللازمين، وإن المعلمين بدؤوا بإعداد البرامج الدراسية للسنة القادمة التي تبدأ عادة في تشرون الأول/ أكتوبر، وإن نقاش البرامج يبدأ في حزيران/ يونيو. في ذلك التاريخ لم يكن بإمكاني الخروج من مركزي العسكري والتحرر من التزاماتي في الجندية ما يعني أنه لا مناص من البحث عن مكان آخر.

كنت أعرف من فرنسا مُستشرِقَيْن أو ثلاثة صودف أن عُيّن أحدهم في المنطقة يدعى جان لوسرف (Jean Lecerf)، الذي أدين له بأشياء كثيرة. فلقد كان لوسرف، فضولياً قليل الانضباط لا يلتزم بالنظام الإداري، وقد تأكد لي ذلك فيما بعد من خلال عملي في قسم الآثار القديمة(Les Antiquités) في بيروت حيث وجدت مصادفةً ورقة يعود تاريخها إلى العام 1920 صادرة عن قنصل فرنسا في القدس يطلب فيها البحث عن الجندي لوسرف الذي اختفى فجأة.

كان لوسرف مجنداً برتبة قومندان (Commandant)، (قائد أو صاغ)، وعلى صلات قوية بالسوريين واللبنانيين، وكان يجيد التحدث باللهجة السورية - اللبنانية لدرجة أنه كتب ذات يوم مقالاً حول الزجل. كما كتب مقالات أخرى في شؤون محلية لبنانية وسورية.

اتصلت إذن بجان لوسرف وطلبت منه تدبير عمل لي في معهد تعليمي في لبنان أو سوريا. اهتم بالموضوع بصورة جدية، واستطاع أن يجد لي عملاً في مدرسة المقاصد الخيرية الإسلامية في صيدا التي كانت تعتبر مركزاً قومياً؛ من خلال علاقاته الجيدة مع المسؤولين عنها. كان الأمر في غاية الصعوبة لأن السلطات العسكرية لم تكن تأذن للمرء بالسفر إلى صيدا ساعة يشاء، ومع ذلك تمكنت من الذهاب إلى بيروت ومقابلة بعض المسؤولين عن المقاصد فيها.

لم يكن لوسرف على علاقة جيدة بالمسؤولين عن المدرسة فحسب بل صديقاً أيضاً لسياسي يدعى تقي الدين الصلح، وعضواً في اللجنة المشرفة على المقاصد؛ وصار فيما بعد رئيساً لمجلس الوزراء في الجمهورية اللبنانية. تحدث لوسرف معه وتمت الموافقة على تعييني مدرساً في المقاصد في صيدا لكن ذلك لم يضع حداً لمتاعبي.

الصعوبة الأولى التي واجهتني تمثلت في التأخر الذي طرأ على تسريحي من الجيش. فالدروس بدأت في أكتوبر/تشرين الأول وكنت لم أُسَرَّحْ بعد. وفي صيدا كانوا ينتظرونني بفارغ الصبر إلى أن تم تسريحي في أول كانون الأول/ديسمبر. وجاءت الموافقة على بقائي

في لبنان كمدرس في المقاصد.

الصعوبة الثانية التي واجهتها هي أن الجيش أخذ مني كل الملابس بعد تسريحي، ولم تكن لدي ملابس بديلة ولا أموال لشراء ملابس جديدة؛ ومن حسن الحظ أنني كنت أحتفظ ببعض العلاقات التي يمكن اللجوء إليها في الحالات الضرورية في فرنسا.

هكذا اتصلت بأخت زوجتي وطلبت منها أن ترسل إلي بعض المال فاستجابت بسرعة وأرسلت مبلغاً صغيراً تمكنت بواسطته من شراء قميص وبنطلون. وعليه كنت في صيدا أحتفظ ببنطلون واحد وعندما أحتاج لإعادة غسله وكيّه أذهب بنفسي إلى الكواء وأخلع البنطلون عنده فيكويه ويعيده إلي وأنا بالانتظار. كما كان يرأف بحالي لمعرفته أنني لا أملك غيره...

التقيتُ تقي الدين الصلح بعد ذلك بعشرين سنة وذكرت له التفاصيل وشكرته على مساعدته لكن تبين لي أنه لا يذكر شيئاً عن الموضوع. هكذا وصلت إلى صيدا وتسلمت عملي كمدّرس للغة والآداب الفرنسية في الصفوف العليا في مدرسة المقاصد التابعة للجمعية الخيرية الإسلامية.



1940 مكسيم رودنسون مجنداً في البريتانيي قبل أسابيع من تشريقه



صيف 1940 على طريق المزة (دمشق)



رودنسون (وسط الصورة) آب 1940مع زملاء في معلولا (سوريا)



1940 مع جنود فرنسيين من فصيله العسكري في دمشق



19 تشرين الثاني 1940م مع زملاء ومواطنين في شارع الصالحية في دمشق أمام محل الحلويات ومقابل مركز التموين التابع للجيش الفرنسي

صيدا: مدرّس الفرنسيَّة يدرّب على السّلاح!

كانت صيدا مدينة صغيرة جداً في ذلك الحين. وكانت حياتنا في المقاصد جيدة.

يقع بناء المدرسة بمحاذاة الشاطىء وهو بناء كبير شُرفته الواسعة تطل على البحر ويضم ملعباً لكرة القدم، ويحتوي على غرفة داخلية خاصة بالمدرسين الذين يسكنون خارج المدينة. أما المدرسون فكانوا ينتمون إلى طوائف مختلفة فكان بينهم أرمني من بيروت وآخر سني يدعى علي سعد، وثالث سني أيضاً من بيروت يدعى رشيد سنو. كان سنو ضخم الجثة وكنا نداعبه أحياناً، خصوصاً عندما يلقي علينا قصائده الغرامية التي كان يوجهها إلى فتيات ويوقعها باسم رشيد بك. ومن بين أسرة التدريس كان هناك أستاذ أرثوذكسي من مرجعيون تلقى دراسته في القدس حيث كانت البعثات الروسية في المدينة توفر فرص التعليم لأبناء الطائفة الأرثوذكسية؛ وكان هناك أيضاً مدرس سنّي من برجا في إقليم الخروب. وبوسعي القول إن العلاقات بين المعلمين الداخليين كانت جيدة.

أعتقد أنني كنت الفرنسي المدني الوحيد المقيم في المدينة، إضافة إلى موظّفين فرنسيين قليلين من بينهم المستشار لجنوب لبنان، ديمون (Dumont) ومدير بعثة التنقيب عن الآثار في صيدا، دونان (Dunand)؛ وهذا تعرفت عليه وعلى زوجته حيث كان مقيماً في مدينة جبيل، ويتردد إلى صيدا بين الحين والآخر ويسكن منزلاً جميلاً في عين الحلوة التي تضم اليوم مخيماً فلسطينياً وفي المنزل خدم يُوفِّرون راحته فضلاً عن مهندسين وعمال للتنقيب عن الآثار.

صادفتني بعض المشاكل بسبب اليهود المقيمين في المدينة وعددهم أقلّ من خمسمائة. كانت لديهم مدرسة هي الأليانس، مديرها رجل طيب تولى إدارتها بعدما جاء من العراق حيث كان مقيماً في البصرة. لكن زوجته كانت مجنونة، وكان أهل صيدا كلهم يعرفون السيدة فرانكو بسبب جنونها. كانت تحب فرنسا كثيراً وتعبّر عن هذا الحب بطريقة فظّة وغير سياسية، ولا تتردد في الإدلاء بآراء وفي اتخاذ مواقف علنية ساذجة في الأسواق والشوارع. مثال ذلك أنها كانت تتجوّل في سوق المدينة وتقول للناس: أنا جاسوسة فرنسية، انتبهوا من الآن فصاعداً لما تقولون. كان زوجها ضحية بالفعل، ولم يكن مؤهلاً لتقدير خطورة الوضع. دعاني إلى منزله ذات يوم وتعرفت على زوجته وعلم الجميع في صيدا بأمر هذه الزيارة التي كانت طبيعية بالنسبة إلي، لكن التطورات اللاحقة بينت أنها كانت سلبية بالنسبة إلى الآخرين.

قصفت قوات الجنرال ديغول دمشق في العام 1945 وساد شعور

معـاد للفرنسـيين فـي الأسـابيع والأشـهر التاليـة، وتعـرض عـدد كبيـر منهـم للاعتـداء والإهانـة. السـيد فرانكـو، مديـر الأليانـس، ذهـب إلـى دمشـق وأصـرّ علـى التكلـم بالفرنسـية بصـوت مسـموع فـي الشـارع فـكان أن اعتُـديَ عليـه وقتـل. وفيمـا بعـد قـرّرت عائلتـه العـودة إلـى فرنسـا. الإبـن صـار رجعيـاً وكان يعمـل فـي الصحافـة والإذاعـة وكتـب مقـالات ضـد الشـيوعية، وعبّـر عـن تأييـده لإسـرائيل، أمـا الإبنـة فجُنَّـتْ كأمهـا تمامـاً.

علاقتي بأسرة فرانكو سببت لي بعض المتاعب، خصوصاً مع أحد تلامذتي وهو متشددٌ واستفزازيٌّ. كان بعض الناس يشكّون أحياناً فيّ ويظنّون أنني أتعامل مع الفرنسيين وأُسرِّبُ إليهم أخباراً. لا أعرف كيف ولمن أسرّب هذه الأخبار والمعلومات طالما أنني الفرنسي الوحيد في المدينة، ولا أغادر المقاصد إلّا نادراً! المظهر الفرنسي الوحيد في المدينة هو وجود بضع زوجات لعساكر كُنَّ يُثرن اهتمام الرجال الصيداويين أكثر من أي شيء آخر...

لم تكن حياتي في المقاصد سيئة البتة، وأحتفظ من تلك الفترة بذكريات جيدة. كانت تطربني أناشيد المدرسة التي يرددها الطلاب 4 مرات في اليوم وأنا بطبعي أحب الأغنية. لذا كنت أستمع بإصغاء إلى هذه الأناشيد عندما تُردَّد في ملعب المدرسة بصوت عال.

كنت آكل في المدرسة ولا أتردَّد كثيراً إلى الأمكنة العامة. ذهبتُ عدة مرات إلى السوق القديمة مع زملائي أو منفرداً. كان الناس يتجمعون في الساحة العامة بالقرب من خان الإفرنج أو الخان التركي يتداولون الأحاديث ويتبضعون.

كان طلابي ينتمون إلى طوائف ومناطق مختلفة، لكن أغلبيتهم من الطائفة السنية، وبينهم عدد من الشيعة وبعض المسيحيين، وهناك طالب أو طالبان من اليهود. ومن بينهم أيضاً أبناء الأساتذة إذ كان لهؤلاء الحق بالحصول على تخفيض كبير في القسط المدرسي علماً أن معظم الطلاب كانوا من أبناء الطبقات الميسورة، ليسوا أغنياء جداً ولا فقراء للغاية وأذكر أن اثنين منهم كانا يعتمران الطربوش.

وللمقاصد مدرسة ابتدائية تابعة لها بالقرب من مدرستنا يفتخر مديرها بأنه انضم إلى جيش الأمير فيصل الأول، ويدّعي أنه واجه لورانس ذات مرة ورفض أن يؤدّي له التحية العسكرية لأنه عبّر عن قلة احترام للعرب، ويروي ذلك بلهجة خطابية... أما التظاهرات القومية فكانت تنطلق في عدة مناسبات لمناهضة الانتداب والمطالبة باستقلال وكانت المشاعر القومية على أشدّها في صيدا في تلك الأثناء.

كان بعض الأساتذة يشاركون في هذه التظاهرات التي لم تكن كثيرة على كل حال. ذات يوم أخبرني أحد الأساتذة أنه كان يشارك في تظاهرة عندما طلب منه المتظاهرون أن يتقدمهم، ودفعوه إلى الامام ثم طلبوا منه أن يلقي خطاباً في مكان التجمع في إحدى الساحات. وروى لي هذا الأستاذ أنه لم يكن يعرف ماذا يقول. ثم اضطر فيما بعد أن يخاطب الجميع بقوله: «أيها العرب» وردد العبارة عدة مرات وفي كل مرة يرد عليه المتظاهرون بالقول: براڤو، براڤو. إلى أن تمكن فيما بعد من قول بعض الجمل المفيدة.

لا يَسَعُني أن أتحدث بعمق عن العلاقات بين الطوائف والناس في صيدا في ذلك الحين، لأنني كنت أعيش خارج علاقاتهم وأمضي معظم الوقت في المدرسة. ولم أكن أعرف حقيقة ما يدور إلّا على السطح. لكن هناك قصة يحلو لي أن أرويها في كل مرة يتمّ التطرق إلى العلاقات بين الطوائف، حيث من الصعب أن يفهم الفرنسيون حقيقة هذه العلاقات وبواطنها. وقد ذكرت هذه القصة ذات يوم للرئيس فرنسوا ميتران.

كان في صيدا مدرسة كاثوليكية تعرفت على مديرها وتحدثت معه كما كنت أتحدث مع كثيرين غيره، وأثناء الحديث جرى التطرق إلى الموارنة، ولم أعد أذكر السبب؛ فجأة علَّق بقول صدمني كثيراً حين أكَّد: آه لو تعرف حقيقة الموارنة يا سيد رودنسون. هؤلاء لا يمكن أن تجد (...) منهم في العالم، لا، أعتقد أنه يمكن أن نجد (...) منهم في هذا الكون. واستنتج قائلاً: أنا في حقيقة الأمر أفضل المسلمين عليهم. رويت هذه الرواية لفرانسوا ميتران عندما قال أمامي ذات يوم إن سبب الاضطرابات في الشرق الأوسط ناتج من «حِدّة الإيمان». أضحكني هذا القول لأن الخلاف بين الكاثوليك والموارنة فيما يتصل بالإيمان دون أن يذكر، مع ذلك يتحدث هذا الراهب الكاثوليكي بحقد فظيع عن الموارنة.

صادفت مواقف عجيبة في صيدا خلال التدريس في المقاصد. دخلت صباح يوم من شهر أيار/مايو 1941إلى الصف كبقية الأساتذة

فبادرني الطلاب بالوقوف والهتاف دفعة واحدة: فليسقط الاستعمار. قلت حسناً. فهمنا. فلنبدأ الدرس. قالوا: لا. لا. انتهى الصف ألم تسمع الأخبار من الإذاعة. هناك انتفاضة تدور الآن في العراق وكلنا مستنفرون هنا ولن ندرس بعد الآن لا اللغة الفرنسية ولا اللغة الإنكليزية ولا الرياضيات. لا شيء على الإطلاق. لقد حضرنا أنفسنا للحرب من أجل دعم إخواننا في العراق. حدث ذلك خلال ثورة رشيد عالي الكيلاني[1]. وما جرى معي في الصف جرى مع كل المدرسين الآخرين وفي وقت واحد.

قلتُ للطلاب: لا بأس إذا قررتم ألّا تتعلموا فهذا الأمر يناسبنا نحن الأساتذة؛ يمكن أن نمضي الوقت في التنزه... وبالفعل غادرت الصف متوجهاً إلى غرفتي. بعد قليل من الوقت طرقوا باب الغرفة ودخلوا ثم قالوا لي: أستاذ نريد منك أن تساعدنا على التَّدَرُّب على السلاح والقتال. أدهشني هذا الطلب وقلت لهم أنا لا أعرف شيئاً من ذلك. لقد كنت جندياً بسيطاً في الجيش الفرنسي. قالوا: كنت جندياً وهذا يكفي. أنت تقول ذلك عن نفسك ولكن ليس صحيحاً فقد رأينا على طاولتك كتاباً بعنوان «دليل ضابط المشاة»، إذن يجب أن تساعدنا لأننا حاولنا إيجاد مدرّب آخر دون جدوى. ذهبنا إلى قنصلية العراق في بيروت

(1) رشيد عالي الكيلاني رئيس وزراء عراقي في العهد الملكي انقلب على البريطانيين وعلى عبد الأله الوصي على عرش العراق وشكل حكومة استقلالية عام 1940 لكن بريطانيا أرسلت قوات احتلت العراق وأعادت سلطة العرش ووضعت حداً لثورة الكيلاني.

وقابلنا القنصل وقلنا له نريد أن ننخرط في الجيش العراقي. والقنصل رجل كبير في السن فأجابنا: حسناً أنتم قوميون جديرون بالاحترام ولكن ليس لدينا اليوم وسيلة لتنظيمكم وتدريبكم لذا أنصحكم بالعودة إلى صيدا وبتحضير أنفسكم حتى إذا ما احتجنا إليكم نستدعيكم في الوقت الناسب.

وقال لي الطلاب: نريد أن نستعد، ونحتاج إلى من يشرح لنا بعض الأمور العسكرية. تحدثنا مع ضابط سابق في البحرية العثمانية ظل مقيماً في صيدا بعد رحيل الأتراك، وهو من الذين شاركوا في الحرب العالمية الأولى. طلبنا منه أن يدربنا فرفض فكرنا في الأمر ملياً ووجدنا أنك الوحيد القادر على تدريبنا لأنك في الجيش الفرنسي ولديك كتاب مفيد ويمكنك أن تشرح لنا أساليب القتال. شددوا عليّ كثيراً وأتعبوني بإلحاحهم فقلت لهم: حسناً سأعلمكم ما أعرف ولكن انتبهوا، ما أعرفه لا يبدو أنه مفيد للغاية بدليل ما جرى في فرنسا أثناء الهجوم النازي؛ ولو كانت هذه المعرفة مفيدة جداً لما جرى ما جرى في السنة الماضية. فقالوا لا بأس فليس لدينا خيار آخر.

كنت بالفعل أحتفظ بالكتاب الذي أشاروا إليه كما أحتفظ بكتبٍ كثيرةٍ، لكني لم أكن مهيأ لنقل معرفة مفيدة على هذا الصعيد. قلتُ لهم حسناً وبدأتُ بتدريبهم على كيفية إطلاق النار، نظرياً بطبيعة الحال. شرحت لهم وضعية إطلاق النار وقوفاً ثم ركوعاً ثم انبطاحاً. كان المشهد جديراً بأن تنقله ريشة مؤلف كوميدي. انتهى الأمر عند هذا

الحد مع طلابي الذين كانوا يعيشون أجواء قومية وحماسة كبيرة. وبطبيعة الحال لم يحدث شيء فيما بعد وانهزم الكيلاني قبل أن يتمكن أيّ من طلابي من الالتحاق بالجيش العراقي.

كان مشهد التظاهرات والتجمعات في ساحة صيدا الرئيسية لافتاً للنظر. كنتُ أشاهد من غرفتي المطلة على الساحة حكواتياً يروي للناس في طرف الساحة حيث يقع مقهى كبير يتجمعون فيه، وكنتُ أحب بفضول معرفة ما يدور في الساحة، ويكف يتصرف أولئك الرجال الذين يُدخِّنون النارجيلة. خلال الجلسات كان يتوقف الحكواتي أحياناً عن الكلام ويُشَغّل في المقهى مذياع كبير يرتفع منه صوت يقول: هنا برلين حيّ العرب، فيرد الحضور بالعربية: أهلاً وسهلاً. وهنا يبدأ المذيع بالكلام. أعتقد أن اسمه يونس بحري. كان يتحدث بطلاقة كبيرة، وقد التقيته بعد سنوات عديدة في أحد مقاهي بولفار سان ميشال الباريسية. أعتقد أنه كان يوجد أنصار لألمانيا في البلاد ذلك الحين، لكن بعد معركة ستالينغراد اقتنع الناس أن لا جدوى من الرهان على الألمان، وأصبحوا مؤيدين لبريطانيا والولايات المتحدة الأميركية.

أعرف أن مشاعر الطلاب القوميين كانت مناهضة للاستعمار وللفرنسيين، وأعرف أيضاً أن مثل هذه المشاعر قد تُسبب لي المتاعب بوصفي فرنسياً، لكنني لم أتعرض لأي اعتداء أو حتى هجوم كلامي كبير، إلّا في مرة واحدة إذ حدث لأحد طلابي، وكان على ما أذكر من آل البزري، أن استخدم في معرض مخاطبتي عبارة مسيئة إلى الفرنسيين بطريقة استفزازية فصفعته وانتهى الأمر عند هذا الحد.

كانت الأجواء العامة في المدرسة عادية تجاهي كفرنسي إلى درجة كان معها بعض الأساتذة الأرمن والمسيحيين والمسلمين يعتقدون أنني سأطلب لحظة دخولي المدرسة أن تشتري لي الإدارة نبيذاً بصورة دورية، وهم يستفيدون من ذلك. وعندما سألوني: ستطلب نبيذاً أليس كذلك؟ هنا لا يوجد سوى الماء. قلت لا حاجة بي إلى النبيذ فأنا أشربه نادراً، لذا يمكنني أن أكتفي بالماء بسهولة، فأصيبوا بالإحباط. كان الجميع يُظهرون لطفاً نحوي. أقول ذلك للإشارة إلى أن فرنسيتي لم تكن موضع عداء لي في المدرسة.

لم أكن قادراً في صيدا على تحديد موقف من القضية الفلسطينية ولا أن أعالج هذه القضية التي كانت مطروحة، (بين قضايا قومية أخرى)، في ذلك الحين. روى لي بعض طلابي حكايات عن مشاركتهم في فلسطين بالانتفاضة الكبيرة (1939-1936). فهمت في حينه بعض الأشياء عن الاستيطان اليهودي في فلسطين، لكن ليس بما فيه الكفاية. يجب أن أشير إلى أنني كنت في حينه شيوعياً، وكانت نظرتي إلى الأمور تتأثر بهذا الانتماء. فأنا عضو في الحزب الشيوعي الفرنسي منذ العام 1937. حاولت التعرف على الشيوعيين، لكن لم يكن في صيدا أحدٌ منهم، وما زاد في الأمر صعوبة أن الحزب الشيوعي اللبناني كان محظوراً في عهد حكومة ڤيشي. عرفت شيوعيين لبنانيين فيما بعد في بيروت. ناهيك عن أنني لم أكن أزور مدناً وبلدات أخرى في لبنان لالتقاء شيوعيين أو غيرهم. كنت أتجول قليلاً وخصوصاً أيام الآحاد

وأحياناً أذهب إلى مرجعيون، وربما ذهبت مرة واحدة إلى برجا لزيارة أحد الأصدقاء. أضف إلى ذلك أنه لم يكن لدي الكثير من الوقت لانشغالي بتحضير الدروس، ناهيك عن أنني لم أكن أملك الكثير من المال للتنقل. لم يكن لدي المال الكافي لأسباب كثيرة، من بينها أنني عندما وقّعتُ العقد مع إدارة المقاصد، لم أكن أعرف أنه ينص على عدم إعطائي راتباً خلال العطلة الصيفية، لذا كان عليّ أن أقتطع قسماً من راتبي كل شهر لتغطية مصاريفي اليومية خلال العطلة؛ لهذا كانت أوضاعي المادية أسوأ من أوضاع سائر المدرسين في المقاصد.

اندمجت في المحيط الصيداوي الخاص بالمدرسة، وفيها عرفتُ هذا المحيط أكثر من أي مكان آخر. ليس كما أتمنى اليوم، ولكن في حينه كان اندماجي تاماً في المقاصد، ومجتمعها. من ذلك أن علاقتي كانت جيدة بالأساتذة والطلاب، وإذا كنت قد أشرت إلى حادثة فردية مع طالب فهناك حادثة أخرى مع مدرس. قد لا تكون حادثة بالمعنى الحرفي للكلمة ولكن، فلنقل، إشكال...

كان الشيخ عمر، أستاذ الدين الإسلامي في المقاصد، شخصاً ضخم الجثة، يسخر منه الطلاب عندما يحدثونني عن حصته بسبب ضخامة جثته. فيزعمون مثلاً أنه يلتهم 2 كلغ من اللحم في الوجبة الواحدة. وغالباً ما كانوا يتغيبون عن حضور حصته الدينية فيُعبِّرُ عن انزعاجه من ذلك ويُسرّب أخباراً أنني السبب في غيابهم، وأنني أحرِّضهم عليه. ولهذا السبب غيّر سلوكه نحوي، وكان الطلاب يعرفون ذلك إلى أن

قرروا ذات يوم، كما أخبروني، أن يصارحوه بالأمر فقالوا له إن تغيبهم عن حصته ناتج من عدم رغبتهم وأن الأستاذ مكسيم لا علاقة له بالأمر.

***

أهالي صيدا يخضعون كغيرهم لقانون العرض والطلب في السوق، وهذا القانون مهيمن في لبنان عموماً. أذكر أنني اشتريت قبل دخول الإنكليز إلى المدينة بعض الكتب من صاحب المكتبة الوحيدة في المدينة، وهو من آل الأنصاري. كان يبيع كتباً بلغات شتّى من بينها الإنكليزية فاشتريت بعضها. وكان أهالي صيدا قد علموا أن الجيش الإنكليزي، سيدخل إلى مدينتهم واستنتجوا أن دخوله سيحوجهم إلى تعلُّم اللغة الإنكليزية وسيرفع أسعار الكتب الإنكليزية، لذا بادروا إلى شرائها بكثرة حتى لم يبق أي كتاب إنكليزي عند الأنصاري.

ذات يوم، وبعد إلحاح الزبائن وتكاثرهم، قال لهم الأنصاري: إذهبوا إلى المدرّس مكسيم في مدرسة المقاصد فهو اشترى بعض الكتب من عندي باللغة الإنكليزية، يمكنكم أن تسألوه إذا كان راغباً في بيعها.

لم يتردد الزبائن فجاء منهم 5-6 شبان صيداويين وقالوا إن الأنصاري أخبرهم أن لدي كتباً باللغة الإنكليزية أودّ بيعها، فأجبتهم أنني غير راغب في ذلك لأنني أحب الكتب كثيراً، وأحبّ الاحتفاظ بها، وبعضها لم أنته من قراءته فقالوا لي: أستاذ يبدو أنك تريد أن تنتظر

حتـى يرتفـع ثمنهـا كـي تبيعهـا بسـعر مرتفـع أليـس كذلـك؟! هـذه الواقعـة تعكـس بعضـاً مـن خصائـص المجتمـع الصيـداوي.

لم أتمكن من زيارة الكثير من البيوت الصيداوية ولم أتعرف تماماً على مطابخ البيوت، لأنني كنت أعيش حالة خاصة، فالمقاصد تتحمل نفقات إقامتي وتقدّم لي الطعام اليومي، ولم أكن حسن الهندام بسبب ضآلة راتبي. دعيت مرتين من طرف عائلة أستاذ لبناني من المدرسة من آل أفتيموس. في إحداها كان يحتفل بزواج أخته فدعاني إلى حفلة استقبال في منزله الجميل في صيدا. كذلك لم أكن قادراً على زيارة المدن والبلدات الأخرى في الجنوب للتعرف عليها عن كثب.

يمكنني القول عموماً إن المطبخ الصيداوي في المقاصد بسيط وهو مطبخ للجميع. بعض الأطباق لم أحبها. فأنا منذ صغري لا أحب أنواعاً معينة من الخضار الشرقية كالباذنجان والكوسى. لا أطيق هذه الأنواع أبداً. بالمقابل كنت أحب أطباقاً أخرى مثل المجدرة وهذا الطبق كان موجوداً على الدوام في برنامج الطعام اليومي. وفي المرات النادرة التي يتوافر فيها المال، كنت أذهب إلى السوق وأشتري بعض الأشياء وأحضّر الطعام بنفسي. أحببتُ حلوى السنيورة في صيدا لكن ثمنها كان مرتفعاً لذا كنت أتناول العجوة بفعل الضرورة لانخفاض ثمنها.

بقيــت فــي صيــدا مــن شــهر كانــون الأول/ديســمبر 1940 إلــى شــهر حزيــران/ يونيوعــام 1941 وغادرتهــا مجبــراً بســبب دخــول الإنكليــز إليهــا. مــا زلــت أذكــر أن التجــار هــم أول مــن علــم بتحــركات الإنكليــز ونيّتهــم

الدخـول إلـى المـدينة وأنهم يُكثفون وجودهم على حـدود فلسطين.

كنا في ذلك الحين أربعة فرنسيين في صيدا. مدير الحفائر وزوجته وأنا وشخص آخر. ذهبت إلى منزل المدير دونان وسألته عما يجب أن نفعله إذا ما دخل الإنكليز المدينة فقال إن علينا، نحن الأربعة، أن نظل في أماكننا وألّا نتحرك. كان يقيم في عين الحلوة، كما ذكرت من قبل. بعد يومين نزلت إلى عين الحلوة للسؤال عنه، فوجدت أنه اختفى تماماً هو وزوجته وخادمته. غادر المدينة من طريق الجبل. دهشت للأمر وقلت في نفسي: الظاهر أن التعليمات العامة تقضي بعدم التحرك، لكن يبدو أنه يطبق التعليمات الخاصة على نفسه. علمت فيما بعد أن مدير الحفائر عرف من خلال بعض الموظفين في بيروت بخلو منصب المدير العام للآثار القديمة فيها، وأن هذا الأخير عيّن في اليونان، وبما أن دونان كان يطمح إلى الحلول مكانه فقد اغتنم الفرصة وأسرع بالذهاب إلى بيروت، سالكاً طريقاً جبلياً، فبقيت أنا واثنين من موظفي القسم أحدهما أرمني والآخر مسيحي، فضلاً عن موظف روسي الأصل كان يعمل كمهندس في قسم الأنتيكا، وقد أخبرني أنه خدم في الجندية خلال العهد القيصري حتى الثورة عام 1917. كان مخلوباً بالشؤون العسكرية حتى إنه كان يجرّني أحياناً إلى شاطىء البحر لمعاينة آثار القذائف الإنكليزية. أذكر أننا احتفلنا معاً في صيدا، وكنا الوحيدَيْن، بدخول الألمان إلى روسيا. أنا بوصفي شيوعياً وهو بوصفه وطنياً. أدركنا معاً أن الجيش الألماني سيهزم حتماً بدخوله

روسيا، وتبيّن فيما بعد أننا على حق. شربنا للمناسبة بعض الوسكي وكان من الصعب أن يقتنع غيرنا من ساكني المدينة أنه ليس بوسع الألمان التغلب على روسيا سريعاً كما استولوا على فرنسا من قبل.

كنا نعرف إذن أن الإنكليز سيدخلون إلى المدينة فهم بدأوا باجتياح الجنوب وقد انقطعت الطريق بسرعة كبيرة بين صيدا وبيروت، لأن ضباط فيشي الفرنسيين كانوا قد حضّروا خطاً دفاعياً في الدامور. كنا نحن في صيدا وهم في الدامور لا يهتمون بنا. الحمد للّه أنهم نسونا. لذا لم أُطلبْ إلى الخدمة الإجبارية بوصفي جندياً في الاحتياط، علماً أن بعض الفرنسيين في سوريا ولبنان تمّ استدعاؤهم وسقط بينهم قتلى.

كما هو معروف كان الصراع حينذاك مُحْتدِماً بين قوات فيشي المسيطرة على سوريا ولبنان وقوات فرنسا الحرة بزعامة الجنرال ديغول. ومعظم هذه القوات الأخيرة اتجهت نحو دمشق وهي كانت مرتبطة بالقوات الإنكليزية التي انتشرت في جنوب لبنان وحاصرت المدينة، وكانت البواخر الحربية الإنكليزية الراسية قبالة الشاطىء قد وجّهَتْ إنذاراً إلى الفرنسيين بتسليم أنفسهم. وبما أنه لم تكن توجد قوات فرنسية في صيدا فإن أحداً لم يتلقَّ الإنذار. كنت الفرنسي الوحيد في المدينة. ناهيك عن أن أحداً لم يكن يعلم بوجود إنذار إنكليزي. والراجح أن الإنكليز بدؤوا بقصف المدينة عندما لم يتلقوا رداً من أحد على إنذارهم ظناً منهم أن سكوت القوات الفرنسية المفترضة معناه رفض للإنذار.

بدأت القذائف بالسقوط شمال المدينة وجنوبها بإيقاع منتظم، فأيقن الناس أن القصف لن يطال الوسط، فتجمعوا هناك وكنت معهم في المدينة وقيل لي إنه من الحكمة عدم البقاء في المقاصد لأنها تقع على طرف صيدا ولأنها معرضة بالتالي للقصف والاجتياح. وبالفعل كانت القذائف الإنكليزية الآتية من البواخر تعبر بالقرب منها.

في وسط المدينة كان عليّ أن أجد منزلاً. فقصدت الحي اليهودي واستأجرت غرفة عند سيدة يهودية عجوز في الحي القديم. ومن فضائل هذا الانتقال أنه كان يتضمن فنجان قهوة! وبالفعل كانت تلك السيدة تأتيني بالقهوة إلى الفراش صباح كل يوم إلى أن اكتشفت ذات صباح أن لا قهوة فتساءلت عن السبب وذهبت فوراً لأذكّرها بأن القهوة مدفوعة من ضمن الإيجار، وأنني منزعج بسبب تأخرها. فأشارت إلى بابور الكاز ودعتني لأن أحضّر القهوة بنفسي. هذا الطلب حملها على الاعتقاد أنني غير يهودي لأن الدين اليهودي يُحرّم الشغل يوم السبت والعائلات اليهودية تلجأ إلى شخص غير يهودي للاهتمام بشؤون المنزل في هذا اليوم. وبما أنني طلبت منها القهوة صباح السبت استنتجت أنني غير يهودي وبالتالي يمكن أن أتولى شؤون المنزل. في الواقع نسبي يهودي ولكنني لا أنتمي إلى الدين اليهودي ولا إلى دين غيره؛ أنا دهري بدون ديانة وهويّتي هذه معروفة في فرنسا ولا تطرح مشكلة لكنها صعبة الفهم في الشرق الأوسط[1].

(1) راجع مقدمة ميشال رودنسون في مدخل الكتاب حول دهرية والده.

عشت أياماً طويلة تحت الحصار الإنكليزي لصيدا دون أن نعرف ما يجري في الخارج. وبما أن الإنكليز كانوا يكررون الإنذار للفرنسيين بمغادرة المدينة، فإن طبيباً صيداوياً اكتشف هذا الإنذار بالصدفة عبر جهاز لاقط يملكه.

بادر الطبيب إلى الاتصال مباشرة بالإنكليز. استقل سيارته ورفع علماً أبيض وذهب للقائهم. كان رجلاً شجاعاً. هنا قال الإنكليز إن على الفرنسيين أن يستسلموا وإنهم لن يدخلوا المدينة قبل استسلامهم فأكد لهم مجدداً خلوّها من الفرنسيين. ساعتئذٍ قرر ملازم إنكليزي أن يختبر الأمر بنفسه على الأرض. فصعد خلف الطبيب بعد أن جهّز مسدسه لإطلاق النار ووضع فوهته على عنق الطبيب وهدده بالقول: سأقتلك فور مشاهدتي لأول جندي فرنسي في صيدا. هكذا دخل الإنكليز إلى المدينة دون أن يسقط أي قتيل وقد اقتصرت أضرار دخولهم في ما أذكر على جريح واحد... كان دخولهم بعد الحصار قد تمّ عن طريق صور وكان معهم ربما نفرٌ ضئيل جداً من الفرنسيين الأحرار، أنصار الجنرال ديغول، ولكنني لم أعد أذكر ذلك بدقة. بعض الإنكليز استقر في السرايا وبدأ بتنظيم الأمور. بدخولهم تحررت الطريق وصار بالإمكان مغادرة المدينة، لذا قررت مع جماعة قسم الأنتيكا الذهاب إلى بيروت بواسطة سيارة أجرة.

كان جسر الدامور ملغوماً في حينه ويحلُّ محلَّه جسر عائم ضعيف فعبرنا هذا الجسر بدون صعوبة. عندما وصلنا إلى بيروت علمنا أن

دونـان أصبـح مديـراً لقسـم الآثـار وأنـا كنـت مهيـأ لأن أصبـح موظفـاً فـي هـذا القسـم لأننـي أحمـل دبلومـاً باللغـة العربيـة، وكنـت أعـرف العبرانيـة والفينيقيـة والإنكليزيـة. لـم يكـن أحدنـا يعـرف الآخـر كثيـراً، دونـان وأنـا، لكـن كان لدينـا الكثيـر مـن الأصدقـاء المشـتركين، الأمـر الـذي سـهل حصولـي علـى عمـل فـي هـذا القسـم.

كان عليّ أن أُحضر زوجتي وطفلي من فرنسا. كتبت رسائل عديدة لهذا الغرض في العام 1941 عندما كنت في المقاصد. وطبعاً سوريا ولبنان تحت سلطة حكومة ڤيشي وهي التي تنظرُ في أمور من هذا النوع؛ وفهمت أنه عليّ أن أدفع مبلغاً من المال سلفاً وعندما تتم الموافقة على الطلب تكون نفقات السفر جاهزة، أما إذا وقع طارىء جديد أثناء إقامتها فتكون نفقات ترحيلها متوافرة.

لم أكن قادراً على توفير المبالغ المطلوبة لهذا الغرض. حاولت أن أقترض مالاً دون جدوى، وكان عليّ أن أنتظر فرصة أفضل، وقد اكتشفتها مصادفةً ذات يوم عندما كنت في مكتبة قسم الأنتيكا- الآثار بعد استيلاء الإنكليز على سوريا ولبنان.

سمعت في ذلك اليوم أنه صار بالإمكان إحضار العائلات من فرنسا وأن المراكب تذهب من بيروت مملوءة بالركاب المغادرين وتعود شبه فارغة من هناك. كان عدد كبير من الفرنسيين المقيمين في سوريا ولبنان ومن العساكر يغادرون بيروت. وكانت قناة المغادرة متوافرة من خلال البحرية الفرنسية التابعة لڤيشي في المرفأ. حصلت بواسطة هذه القناة

على المعلومات اللازمة لإحضار زوجتي. أرسلت إليها برقية إلى حيث تقيم عند أسرتها في قرية صغيرة، (مائة نسمة)، في مقاطعة La Drome . طلبت منها أن تُحضّر نفسها للمجيء إلى بيروت. بعد أيام استلمتْ برقية من سلطات ڤيشي تُعلمها أن عليها أن تستقل المركب المتجه إلى بيروت خلال ثلاثة أيام وأن تسافر إلى مدينة تولون لهذا الغرض.

جاءت زوجتي من فرنسا مع 30 شخصاً في مركب يتسع للمئات بل للآلاف، ربما 3 آلاف راكب، وكان القادمون معها من المدرّسين أو عائلات المدرّسين أو الرهبان اليسوعيين. ذهبتُ إلى المرفأ دون أن أعرف إذا ما نجحت في الإبحار أم لا فاستقبلتها مع طفلي البكر الذي يبلغ من العمر 3 سنوات واستأجرنا غرفة عند سيدة لبنانية من عائلة ذات أصول إيطالية لكن مُلبننة منذ سنوات. في هذا الوقت كان دونان قد وعدني بوظيفة في قسم الأنتيكا في بيروت.



1940 في حرم مدرسة المقاصد في صيدا

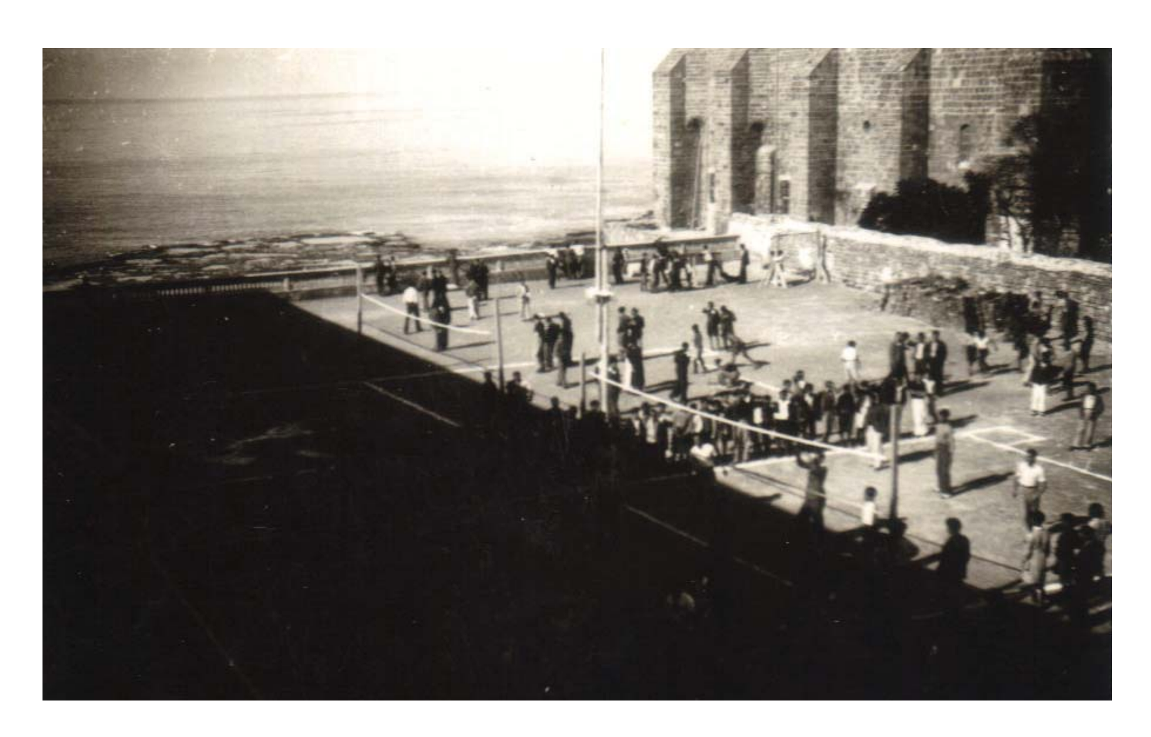


1940 مع بعض زملائه مدرسي المقاصد، وهم: فؤاد أبو زيدان (مرجعيون) في المقدمة، ومن اليسار إلى اليمين، رودنسون، جميل الخطيب (برجا)، خاتشادور بوفادجيان (أرمني)



1940 مع زميله خاتشادور في الدامور أمام الجسر الذي دكه الإنكليز قبل دخولهم

=



ملعب مدرسة المقاصد في صيدا المطل على البحر

=

بيروت: فرنسيّون يخلفون فرنسيّين

في بيروت أخلى نظام ڤيشي السلطة لنظام فرنسا الحرة بزعامة الجنرال ديغول الذي كان ممثله الأول في لبنان الجنرال كاترو. كنت في ذلك الحين موظفاً صغيراً في قسم الأنتيكا، وأقيم في المصيطبة عند تلك السيدة الإيطالية الأصل في منزل صغير جداً. اختلفت معها وبدأت بتدبير منزلٍ آخر أكبر من الأول، يتسع لي ولزوجتي وطفلي. وتمكنت بواسطة الأصدقاء من العثور على منزل عند السيدة بدران، وهي فرنسية الأصل ومتزوجة من وديع بدران الذي كان يملك متجراً لألبسة الأطفال في سوق الإفرنج بالقرب من باب إدريس.

تمكن وديع بدران، بفضل تجارته الناجحة، من شراء بعض المنازل التي يؤجرها ومنها منزل يقع بالقرب من المدرسة الإيطالية في رأس بيروت. وما زلت أذكر أن أحد الشوارع القريبة من المنزل كان يسمى شارع مدام كوري وكان الاسم يكتب بالعربية مدام خوري[1]!

(1) المقصود Marie curie.وهي عالمة فيزياء وكيمياء فرنسية من أصل بولوني حصلت مع زوجها بيار كوري على جائزة نوبل في الكيمياء عام 1903 حول أعمالهما في اكتشاف البولونيوم والراديوم وهي المرأة الأولى التي تفوز بجائزتين من أكاديمية نوبل.

يقع المنزل خلف الكبوشية وهو كغيره من المنازل المنخفضة الارتفاع يطل على حديقة خاصة. وعندما عدت للمرة الأولى بعد عشرين سنة من غيابي عن بيروت، لم أتمكن من التعرف عليه. تغيرت المنطقة كثيراً. أذكر أن مسؤولاً فلسطينياً كبيراً اغتيل فيما بعد في المنطقة بواسطة عبوة ناسفة[1].

لم يكن الحي الذي سكنت فيه ميسوراً، وكان يقع تقريباً، وفق تصنيفات ذلك الوقت، خارج المدينة القديمة. كان حي المرفأ هو الأبرز في حينه حيث تقع القاعدة البحرية الفرنسية. ثم حي المعرض ومنه كنت أستقل التاكسي الجماعي، ويسميه العامة «سرڤيس» حيث كانت تنطلق «السرڤيسات» من المعرض في شتى الاتجاهات. ومن بين المعالم البارزة على الشاطىء أذكر الحمام العسكري التابع للقوات الفرنسية، وأعتقد أنه ما زال موجوداً حتى الآن.

كان الجيران عموماً من الأجانب وبينهم عائلة فرنسية من منطقة الساڤوا العليا (La Haute Savoie) وضابط إنكليزي أذكر تماماً أنه كان يظن أنني جاسوس. عموماً كان الجميع يظن أن الكل جواسيس. ومن بين جيراننا عائلة لبنانية أشورية - كلدانية لا يكف الأب فيها عن ترديد عبارات التمجيد بأصله الحضاري الأشوري - الكلداني. ساهمت

(1) هو أبو حسن سلامة وكان مسؤولًا عن جهاز المخابرات الفلسطينية المعروف بجهاز الـ 17 وكان من أبرز المقربين من الرئيس الراحل ياسر عرفات.

في تعيين ابنته صوفي التي كانت تجيد الفرنسية، موظفة طابعة على الدكتيلو في قسم الأنتيكا. علمت فيما بعد أن العائلة بأسرها انتقلت إلى الخارج، وربما هاجرت إلى الولايات المتحدة الأميركية.

كان لإبراهيم الأشوري ولد يدرس عند الأميركيين، في حين أن ابنته صوفي درست في اليسوعية عند الفرنسيين، ولم يكن من السهل يومذاك الملاءمة بين الاتجاهين. وعندما سألته عن كيفية فوزه بثقة الطرفين قال إنه من أجل تعليم ابنه عند الأمريكيين، كان يدّعي أنه بروتستانتي، ومن أجل تعليم ابنته عند اليسوعيين الفرنسيين، كان يزعم أنه كاثوليكي، دون أن يجد حرجاً في ذلك. معروف أن التعليم في المؤسسات المعنية كان يتم بحسب الانتماء الطائفي عموماً.

كانت الجالية الفرنسية مهمة إلى حدّ ما، لكن اتصالاتي بها كانت تتم بدفع من زوجتي، فأنا لست اجتماعياً بطبعي. كنت في ذلك الحين شيوعياً وزوجتي غير شيوعية أبداً، لكن ذات حساسية شعبية، وقد دفعتني دفعاً لإقامة علاقات مع الفرنسيين ذوي الأصول الشعبية. هكذا نشأت صداقات بيننا وبين البعض منهم.

عموماً، انقسم الفرنسيون في بيروت حينذاك إلى تيارين: تيار مناصر لليسوعيين وتيار آخر مناصر للماسونيين. التيار الأول كان أقرب إلى اليمين والثاني أقرب إلى اليسار. في السنوات 41، 42، 1943 كان معظم الناس اليمينيين مناهضين للجنرال ديغول، في حين أصبحنا نحن ديغوليين أكثر من السابق...

من بين علاقاتي الجيدة مع هذا الوسط أذكر السيد إميل، وهو مدير مدرسة الفنون والمهن في دمشق، وزوجته مديرة مدرسة البنات فيها. وكان لإميل 5 صبيان وبنت واحدة. كان يتمتع بعقلية جمهورية معتدلة، وكان مكروهاً من الفرنسيين الآخرين الذين كانوا يأخذون عليه أشياء كثيرة من بينها أنه يسمح لأولاده باللعب في الشارع مع أولاد العرب.

كانت وظيفة إميل تسمح له بإقامة علاقات واسعة مع عدد كبير جداً من الحرفيين في كل سوريا وكل لبنان. وكان يعرف تقنيات الصناعات الحرفية ومن بينها صناعة الفخار في مرجعيون على سبيل المثال. مات إميل مع الأسف دون أن يُعدّ كتاباً أو مقالات حول هذه المعرفة الغنية.

كان يتكلم العربية بشيء من الركاكة، ولكن عربيته كانت مفهومة تماماً. كان بعض تلاميذه من الأثرياء وقد أقرضه مليون فرنك لشراء منزل في ضواحي باريس يطلّ على نهر السين. وكان ذلك التلميذ يعرف أنه لن يستعيد المبلغ.

كان إميل مُعفىً من الخدمة العسكرية الفرنسية لأنه أبٌ لستة أولاد، ولكنه كان وطنياً يسارياً فأبى أن يستفيد من الإعفاء، وقرر وضع نفسه بتصرُّف فرنسا، لذا كان يأتي خلال العطل المدرسية للعمل في قسم التموين في القاعدة العسكرية في دمشق، وصار رئيس مكتب في القسم. ذات يوم كانت زوجته بصدد الولادة ووضعت طفلتهما وأرادوا إبلاغ الأب عبر الهاتف فصودف في المكتب أن أمسكت السماعة وأعلنت له النبأ ففرح كثيراً. بعد عشرين سنة اقترنت هذه الفتاة بابني البكر..

كان الفرنسيون غير محصورين بحيّ خاص بهم، ويقيمون في الأحياء الحديثة والميسورة، في رأس بيروت والأشرفية وغيرها.

كانت بيروت في الأربعينات مدينة موزعة إلى أحياء. ويمكن القول عموماً إن الأحياء التي تعيش على النمط الأوروبي كانت تقع لجهة طريق دمش، في حين تتركز الأحياء الأرمنية بالقرب من النهر، وتعتبر أحياء البسطة مسلمة وقومية عروبيّة، وكان علينا ألا نذهب إلى هذه الأحياء كي لا نستفزّ أهلها. كان حي المصيطبة مختلطاً، أما منطقة فردان فكانت مقفرة في ذلك الوقت. أذكر أنني كنت أقصدها للتنزه ولا أغامر بالتوغل أبعد منها، أقصى ما كان يمكن الوصول إليه هو كورنيش المزرعة. أما من جهة الأوزاعي فكانت تنتشر التلال الرملية حيث مقام الإمام الأوزاعي على شاطىء البحر. ربما كانت توجد منازل قليلة، لم أعد أذكر جيداً، لكني أعرف المنطقة لأنها كانت ممراً إلى صيدا.

بيروت مدينة مهمة في محيطها، يمر بها الترامواي من شارع دمشق إلى رأس بيروت. كنت أنتقل بواسطته إلى دار الحضانة حيث كانت زوجتي قد سجّلت طفلنا الثاني في تلك الدار الواقعة على طريق دمشق[1]. كان الترامواي يعجُّ بالناس وكنا ننتظره بفارغ الصبر في شارع كليمنصو. أذكرُ أن إحدى المحطات كانت تقع بمواجهة الجامعة الأميركية بالقرب من إحدى المكتبات. الشبان يتراكضون وراءه

(1) المقصود طريق الشام الفاصل بين المنطقتين الشرقية والغربية للعاصمة اللبنانية.

ويصعدون وينزلون قبل توقفه وبعده وكان هذا السلوك يسبب إزعاجاً للركاب الفرنسيين. خصوصاً أن الأطفال كانوا يقلدون الكبار وكذلك النساء.

كان الصراخ يعلو في القاطرات حيث البعض يريد أن ينطلق الترامواي ويكمل سيره والبعض الآخر يرغب في أن يتوقف في المكان الذي يقصده.

ما زلت أذكر، منذ تلك الفترة، المغني الفرنسي موريللي وهو اسمه الفني. يتحدر موريللي من وسط فرنسا وتحديداً من جهة مونبيليه، ويظهر ذلك بوضوح في لهجته الحادة عندما يتكلم أو عندما يغني. ومازلت أذكر أغنيته الشهيرة «La Noce» .

كان موريللي مغنياً معروفاً في فرنسا قبل العام 1937 ولعلّه انتقل إلى بيروت مع اندلاع الحرب. أعرف أنه غنّى هنا وهناك وأقام علاقات. كان يجاهر بشيوعيته في بيروت ويحتفظ بعلاقات فيها مع الحزب الشيوعي اللبناني السوري. كما كان صديقاً حميماً لخالد بكداش وقدم له خدمات كبيرة، لأن المغنّي حتى في تلك الفترة، وحتى لو كان يغني أي شيء، صاحب إمكانيات واتصالات لا تتوافر للآخرين، لذا استطاع أن يساعد خالد بكداش.

أذكر أن موريللي كان قد عُيِّن في فرنسا، بعد التحرير، عضواً في «لجان التطهير»، [المقصود تطهير المجتمع الفرنسي من المتعاونين مع الحكم الڤيشي الموالي للنازية]، وبما أنه فنان فقد عُيّن في «لجان

التطهيـر الفنيـة»، ولعـب دوراً فـي عمليـات التطهيـر لـذا لـم يكـن أصحـاب النـوادي ومنظمـو المهرجانـات راضيـن عنـه؛ وعليـه لـم يجـد عمـلاً كثيـراً فـي فرنسـا وهـذا مـا دعـاه إلـى العـودة مجـدداً إلـى لبنـان علّـه يجـد عمـلاً.

كانت زوجته تدعى مارت، وكانا عندما يتحدثان تظهر بوضوح لهجتهما العائدة إلى وسط فرنسا وهي بالمناسبة لهجة محببة. كان يقول لزوجته: يجب أن تفهمي يا مارت أن كل الناس بحاجة إلى بوصلة لتهديهم، والماركسية هي البوصلة. كان بالفعل رجلاً شجاعاً وشيوعياً «أصولياً».

عندما تعرفت عليه في بيروت سنة 1947 كان يعمل في كاباريه بالقرب من «الكيت كات» وصاحب الكاباريه يدعى سيزار وهو ابن عم الرئيس بشارة الخوري. وكان موريللي يغني مساء كل يوم أمام جمهور ثلاثة أرباعه من الفرنسيين والربع الباقي مختلط. وكانت أغنياته على طريقة «شونسونيه مون مارتر»[1] وتدور حول الأحداث اليومية، وعلى إيقاع الأغاني الدارجة في حينه.

دعانـا، نحـن أصدقـاءه، بواسـطة أصحـاب الكاباريـه سـيزار وكنـا، نينـا كاتـاش وأنـا، الشـيوعيَّين الوحيديـن بيـن المدعويـن. غنـى أغنيـات حـول السياسـة العالميـة والفرنسـية، وأخـرى حـول السياسـة الشـرق أوسـطية وثالثـة حـول سـوريا ولبنـان. وتنـاول الاتفـاق البريطانـي الفرنسـي المعـروف

(1) الـ «شوانسونيه» هو مؤلف ومؤدي الأغاني الشعبية الساخرة التي غالباً ما تتناول حدثاً سياسياً.

بأغنيـة أنهاهـا بسـخرية قائـلاً: تحيـا إنكلتـرة التـي حررتكـم. وتنـاول بأغنيـة ثانيـة موريـس توريـز، (الأميـن العـام للحـزب الشـيوعي الفرنسـي فـي حينـه)، واتصالاتـه بسـتالين وضمَّنهـا معانـي تقـول إن الشـيوعيين خضعـوا لسـتالين وهـذا خطـأ كبيـر. ومـن بيـن الأغانـي المشـهورة التـي غنّاهـا فـي حينـه واحـدة تتعلـق بإنشـاء خـط للسـكك الحديـد بيـن سـوريا ولبنـان وصـولاً إلـى فلسـطين. وجـاء فيهـا:

Nous allons chanter mes enfants

tout dou....tou dou... tout doucement

un magnifique événement

tout dou... tout dou... tout doucement

comme a dit le gouvernement

tou dou... tout doucement

Il faut bien qu'on s'amuse au Liban

tout dou... tout dou... tout doucement

C`est pour cela qu'on est

tout fiè... tout fiè... tout fière de faire

le che... le che... le chemine de fer...

tout doucement

وكان يغنـي أغنيـة حـول زيـارة لبشـارة الخـوري إلـى دمشـق أعتقـد أنـه ألفهـا بنيّـة حسـنة جـداً، وعلـى إيقـاع أغنيـة فرنسـية شـهيرة. وصـودف أن

وُجِدَ في القاعة أحد السوريين فلم يفهم شيئاً من معنى الأغنية، لذا غضب وبدأ بالصراخ ظناً منه أن المغنّي يسخر من سوريا ولبنان، ثم نهض وبدأ يحتجّ لكن الموجودين في الصالة وكلهم من اللبنانيين والسوريين والفرنسيين وقفوا ضده ولفتوا نظره إلى أنه لم يفهم شيئاً من الأغنية. أعتقد أن ذلك جرى في الفصل الأول من عام 1947.

كنت حراً في هذا الفصل، فقد سبق أن أرسلت عائلتي إلى فرنسا لذا ترددت مراراً إلى كباريه سيزار مع موريللي وزوجته وصديقتي نينا كاتاش.

بعد ذلك عاد موريللي إلى فرنسا وظلّ يمارس الغناء في الحزب و أمام جمهور الحزب الشيوعي. وهذا الجمهور يحبه لكن نجاحه في بيروت كان أكبر بكثير من نجاحه في باريس، ربما لأنه كان في بيروت فريداً من نوعه.

ومن بين الشخصيات الفرنسية اللافتة للنظر في حينه رجل كورسيكي يُدعى روكاسيرا، ويعمل في قسم المحاسبة في إدارة الأنتيكا، وكانت المحاسبة دينه الأوحد. لذا كان يتشاجر على الدوام مع السيدة بدران، الطابعة على الآلة الكاتبة والتي ترتكب أخطاء طباعية بين وقت وآخر. وكان يخاطبها في كل مرة بلهجة نقدية صارمة ويطلب منها إعادة القراءة وتفادي الأخطاء في النصوص.

كان روكاسيرا مجنداً في سلاح الخيالة الفرنسي عام 1914، وكان متحمساً للروس لأن لديهم سلاح خيالة شهيراً، ولم يتحمس قط

للشيوعيين وإنما للخيالة فقط. وعندما كان يسمع من الإذاعة حديثاً عن القوقاز كان يعلق بفخر على شهرتهم في دحر الألمان واستعادة مواقع منهم. كانت آراؤه رجعية معادية للديغوليين لكن ذلك لم يمنعه من التعاطي معهم. وأذكر أنه كان يقيم حفلة في عيد الميلاد ويدعو جميع أهالي الحي وأطفالهم ويتنكر بثياب بابا نويل، ويحاول الترفيه عن الأطفال. كان رجلاً شجاعاً وفريداً في الوسط الفرنسي في بيروت.

لم تكن أسعار المواد الغذائية والحاجيات مرتفعة كثيراً في بيروت في ذلك الحين. وقد سجلت زوجتي في مفكرة تحمل عنوان «بعثة فرنسا الحرة في لبنان»، يعود تاريخها إلى العام 1943، سجلت في هذه المفكرة بعض الأسعار لسلع كان علينا شراؤها ومن بينها:

1- قميص أبيض: 3 ليرات.

2- قميص أزرق: 7 ليرات.

3- ثمن حليب لشهر كامل: 12 ليرة.

4- حطب لشهر كامل: 15 ليرة.

5- بدلة رجالية: 400 ليرة.

6- قبقاب: 15 فرنكاً.

7- 2 كلغ برتقال: 25 قرشاً؟

8- طاسة: 25 قرشاً.

9- راتب الخادمة زينة: 30 ليرة شهرياً.

10- حلاق: 60 ليرة شهرياً.

11- غذاء: 2000 ليرة شهرياً

12- كهرباء: 60 ليرة شهرياً.

13- ميزان: 35 ليرة.

14- نفط: 60 ليرة شهرياً.

15- نقليات: 60 ليرة شهرياً.

كنت أتقاضى راتباً مقداره 8 آلاف ليرة لبنانية والأسعار المذكورة هي الأسعار السائدة عادة، وإنما ظروف الحرب كانت تؤدي إلى زيادة في بعض الأسعار وإلى انخفاض في أسعار مواد أخرى تبعاً لتوافر السلع في السوق أو عدم توافرها.

أصبحت حياتي العائلية في بيروت مستقرة بعد مجيء زوجتي وابني؛ وفي العاصمة وضعت زوجتي ابنتي كلودين في العام 1943 في دار الحضانة الفرنسية الواقعة بالقرب من ميدان سباق الخيل. لم تكن زوجتي مرتاحة كثيراً لهذه الحضانة لأن الممرضات اللبنانيات كنّ متساهلات تجاه المواليد، فإذا صرخ وليد يرفعنه فوراً ويرضعنه. لذا طلبت زوجتي أن نخرج ابنتنا بسرعة من الحضانة المذكورة قبل الأوان. ناهيك عن أنها لم تكن تحب الأماكن الـ«شيك».

أحبّتْ زوجتي ذات يوم أن تحذو حذو اللبنانيين وأن تمضي الصيف في الجبل، فأقامت في أوتيل فخم في بعبدا لكنها لم تتمكن من تحمل فخامته وقررت العودة فجأة إلى بيروت بعد أيام قليلة. كان يزعجها أن يقوم الخدم بخدمتها ففضلت العودة.

في العام 1945 حملت زوجتي للمرة الثانية في بيروت واعتبرتْ أنه من الغباوة الذهاب إلى دار الحضانة للولادة، خصوصاً أنها عندما كانت تذهب إلى هناك كانت ترفض أن تستقلّ التاكسي وتفضّل النقل العام (الترامواي). وفي إحدى المرات كادت تلد في الترامواي. لذا قررت أن تلد في البيت، في شارع منيمنة، نصحتُها بالذهاب إلى المستوصف لكنها رفضت، وقالت إنها ستفعل كما يفعل الجميع، أي الاتصال بطبيب وإطلاعه دورياً على حالتها. واخترنا طبيباً مقيماً بالقرب من شارعنا وبمحاذاة أوتيل بريستول الآن واسمه يحيى. ومن ثم بحثنا عن قابلة قانونية فوجدنا أن إحداهن تسكن في الحي نفسه وهي قابلة جيدة وخريجة الجامعة الأميركية، لكن لديها عاهة لا تستطيع معها النطق إلا صراخاً، لذا كانت شقيقتها ترافقها على الدوام لشرح طلباتها والترجمة لأنها الوحيدة التي تفهم لغتها.

عندما بدأت تظهر علامات الولادة استدعيناها فجاءت إلى المنزل مع شقيقتها وكان عندنا في البيت خادمة درزية تدعى زينة. لم أكن أرغب في حضور الجيران لذا أقفلتُ باب الغرفة وقررت أن أظل مع القابلة وشقيقتها في الغرفة لحضور الولادة في حين بقيت زينة في الغرفة الثانية.

لم تكن زينة تتحدث غير العربية وعندما سألتها مرة عما إذا كانت تعرف الكتابة والقراءة قالت لي: «لا الحمد لله». المهم أن القابلة اعترضت على الفراش وقالت إنها تفضل إنزاله من السرير إلى الأرض

ثـم بـدأت تقـول: «هـا... هـا... هـا... » فسـألتُ أختهـا بالعربيـة: «شـو بدهـا» قالـت: «بدهـا مـاي سـخنة». فتحـتُ البـاب وقلـت لزينـة: «زينـة جيبـي مـاي سـخنة». بهـذه الطريقـة وضعـت زوجتـي إبنـي الثانـي؛ عنـد خروجـه أطلـق صرخـة صغيـرة وسـاعتئذ لـم يعـد بإمكانـي أن أضبـط أحـداً. فمـا إن خرجـت مـن الغرفـة إلـى الشـرفة حتـى شـاهدت حوالـى 50 شـخصاً قـد اتفقـوا علـى الحضـور لأن السـيدة الفرنسـية وضعـت طفـلاً. وجـاء أحدهـم حامـلاً معـه «مرقـة الدجـاج» وكان آخـرون يرغبـون فـي دفـن «الخـلاص» فـي الحديقـة. كان حدثـاً مهمـاً بالنسـبة إليهـم.

وصل ابني البكر دانييل إلى بيروت وكان له من العمر 3 سنوات. أدخلناه مدرسة راهبات سيدة الظهور فلم تعجبه المدرسة، فنقلناه إلى مدرسة أميركية ثم سجّلناه في الكوليج بروتستانت عبر صديقة حميمة مشتركة بيننا وبين مديرة المدرسة. تَعَلَّم دانييل العربيّة كتابة وقراءة بسرعة ورغم أن علاماته المدرسية لم تكن فائقة فلقد أنجز دراسته الجامعية في الهندسة الزراعية. كذلك ابنتي تعلّمت العربية من خلال الخادمة زينة واللعب مع الأطفال في الحي. كانت تتحدّث العربية بطلاقة. وكنت معجباً بطريقتها وطريقة أخيها في النطق. بعد ذلك ندما على نسيان هذه اللغة رغم ما لديهما من مشاعر حنين تجاه بيروت.

عـادت ابنتـي إلـى بيـروت عندمـا صـارت كبيـرة، وزارت الأماكـن التـي عاشـت فيهـا طفولتهـا، وهـي تعيـش الآن مـع يهـودي جزائـري مؤيـد للعـرب لكنـه لا يتكلـم العربيـة. أمـا ابنـي البكـر الـذي نسـي اللغـة العربيـة فقـد كان

عليه فيما بعد أن يتعلمها مجدداً لأنه أُرسِلَ بوصفه مهندساً زراعياً في مهمة علمية إلى اليمن، كما عاش سنتين في تونس حيث عمل في المعهد الاقتصادي. وهو الوحيد بين أولادي الذي استعاد اللغة العربية وزار بلداناً عربية كثيرة.

تأثر أولادي بدايةً بمعتقداتي السياسية كما يتأثر الأولاد عادة بمحيطهم العائلي، فكانوا يبيعون *الأومانيته*، [يومية الحزب الشيوعي الفرنسي]، يوم الأحد. كانت مبادرة حميمة وظريفة بالنسبة إليهم. وهن ما زالوا يتمتعون بحساسية سياسية يسارية. لكن ابنتي وابني الثاني ارتبطا بمجموعة تروتسكية؛ وتعمل ابنتي الآن مع أرليت لاغييه في منظمة «النضال العمالي» ولاغييه هذه لطيفة، وأعرف بورجوازيين كباراً يقترعون لها، وأظن أن ابني الثاني شخص مهم في المنظمة بعد لاغييه. ويبدو لي أن أعضاء هذا التنظيم يتعاطون العمل السياسي بسرية تامة، وهم حذرون في كشف أماكن تنقلهم إذ يقولون: «ربما اختلفنا غداً مع باسكوا وبالادور»، [وزير الداخلية ورئيس الوزراء حين إعداد موادّ النص] . هذا الأمر يُزعجنا، زوجتي وأنا، لكن لا نستطيع أن نفعل شيئاً. نحبهم ويحبوننا وتحتفظ زوجتي بعلاقات خاصة جداً معهم، لذا عندما تكون غائبة لا أستطيع أن أدعو ابني الثاني إلى المنزل لأنني لا أعرف ماذا أقول له. فهو قد يحمل كل كلمة على غير محملها في حين أن زوجتي تجيد التحدث معه بطريقة أفضل مني. وابني هذا تقني جيد ويجيد إصلاح آلات كثيرة لذا عندما يأتي لزيارتنا نعطيه كل الأشياء التي تحتاج إلى إصلاح.

ذات يوم، في غياب أمه، اتصلت به هاتفياً لكي يحل لي مشكلة، فقد اشترينا تلفزيوناً جديداً ولم أكن أعرف كيف أشغله. قلت له: رحمة بوالدك العجوز تعال علمني كيف أدير هذا الجهاز فجاء وساعدني بدون مشكلة. علاقتنا بابنتي الوحيدة جيدة أيضاً. أما ابني البكر فلا يزال يسارياً معتدلاً. ربما ينتمي إلى الحزب الاشتراكي لكني لا أعرف انتماءه بدقة.



1941 مع ابنه دانييل في جادة الفرنسيين في بيروت



18 نيسان 1943: في حديقة منزله في بيروت (شارع منيمنة خلف فندق بريستول اليوم)



نيسان 1943 السيدة رودنسون مع ولديها في حديقة المنزل



نيسان 1943 زينة تحمل الوليدة كلودين وإلى جانبها دانييل

يهوديتي هُنا وهُناك وما إليها

كنت على الدوام ضد النزعة القومية اليهودية، وأعلنت ذات يوم أن يهوديتي هي عبارة عن تفصيل «جنسي»، الأمر الذي أغضب الصهاينة كثيراً. ربما أتفهّم اليوم القومية اليهودية ولكن في ذلك الحين كنت ضدها تماماً. واحد من أصدقاء عائلتي كان يقول إن اليهود محظوظون لأنهم ظلّوا بلا وطن خلال 2000 سنة، ولأنهم نجوا من هذا الفيروس القومي... أنا كنت في هذا الاتجاه وكنت وما زلت فرنسياً بشكل كامل.

عرفت يهوداً لبنانيين، وما زلت على صلة ببعضهم حتى الآن، ولي أصدقاء من بينهم. لا أذكر أنهم تعرّضوا يوماً لضغوط بسبب يهوديتهم في ذلك الحين، أو بسبب قضية فلسطين. ربما تعرضوا لمضايقات من بعد، لكن لا أستطيع أن أُفصِّل كثيراً في هذا الأمر.

لم يكن يهود بيروت يحتلون مواقع مهمة في الدولة بل مناصب صغيرة عموماً، كانوا بمعظمهم يتمتعون بتعليمٍ عالٍ أو متوسّط، ومن الصعب تمييزهم من العرب.

ذهبت ذات يوم إلى دمشق لرؤية الحيّ الخاص بهم، في الفترة

التي كنت أبحث فيها عن المال لتغطية تكاليف سفر زوجتي إلى لبنان. لكنهم رفضوا مساعدتي عندما علموا أنني متزوج سيدة مسيحية وأنني لا أمارس الصلاة والواجبات الدينية. واعتذروا عن مساعدتي بقولهم إن الطائفة تعاني الكثير من المصاعب. في كل الحالات فإن قراري الذهاب إليهم لطلب المساعدة، لم يكن قراراً حكيماً وأتفهم سبب رفضهم.

كان اليهود يعيشون في وادي أبو جميل بهدوء، لم أسمع عن مشاحنات بينهم وبين المسلمين والمسيحيين، وكثيرون منهم يعتبرون أنفسهم عرباً ينتمون إلى واحدة من بين الطوائف اللبنانية. كانت كل المنازل في الوادي يهودية في ذلك الحين. ويبدو أن الوادي كان يقوم على مدرّج روماني وهذا الأمر ظاهر بوضوح على الخارطة ما يعني أنهم كانوا محصورين فعلاً في منطقة محددة.

كانت بيروت في حينه تضم بيوتاً تجارية ليهود فلسطينيين صهاينة، من بينها متجر أوروزدي باك الذي يقع خلف البرلمان، وعندي حتى الآن كتب اشتريتها حينذاك من مكتبة ستيماتسكي اليهودية الواقعة في جادة الفرنسيين والمطلة على الكورنيش، صاحبها يهودي من فلسطين. عمل هؤلاء في التجارة ولم يكن لهم دور يذكر في الثقافة. وأعرف أيضاً أنه كان يوجد بعض ممثلي المؤسسات اليهودية العالمية في بيروت، عرفت منهم السيد أشكولي وهو يهودي من أصل إيطالي، ذهب إلى أثيوبيا ودرس حالة الفالاشا ثم عمل بعد ذلك حاخاماً لليهود في الجيش البريطاني.

كنت وما زلت أعرف بعض اليهود اللبنانيين، من بينهم شخص ما زال يعيش في منطقة Bretagne في فرنسا. وهو من اليهود القليلين جداً الذين انتسبوا إلى الحزب الشيوعي في لبنان وحافظ على عضويته في الحزب لفترة طويلة خلال إقامته في فرنسا. لكن اليهود كطائفة لم يكونوا متحمسين للشيوعيين في لبنان ولم أكن أعرف بدقة إلى أي حد تأثروا بيهود فلسطين، أي صهاينة المستقبل، لكن عرفت فيما بعد أن شباناً منهم حاولوا الذهاب إلى فلسطين، ولم تكن عائلاتهم موافقة على هذا الخيار، وحاولتْ ثنيهم عن الهجرة وحملهم على البقاء في لبنان. غير أن الأوضاع ساءت كثيراً مع إنشاء إسرائيل واندلاع حرب السويس عام 1956، وصار الجو غير مناسب لهم فهاجروا. وبعضهم اختطفوا فيما بعد على أيدي الفلسطينيين والمجموعات الدينية الأخرى.

أعرف منهم بنتاً كانت طالبة عندي أخيراً، وقد اختفى أحد أقربائها في لبنان في أواخر الحرب اللبنانية، كانت تواظب على حضور الدروس التي ألقيها حول الشرق الأوسط.

ذات يوم تحدث أحد الطلاب اليهود في الصف عن هجرة اليهود من مصر وسوريا إلى إسرائيل بعد حرب 1967 معللاً هذه الهجرة بالحرب. فانتفضت هذه البنت ضده وقالت إن كلامه غير صحيح، وإن العرب كانوا يريدون حماية اليهود بتجميعهم وحراستهم. قلت لها لا تتحمسي كثيراً فأنتِ لا تعرفين حقيقة الوضع على الأرض.

هذه البنت مخرجة سينمائية حققت فيلماً حول ظفار عن حرب العصابات. لا أعرف شيئاً عنها منذ عشر سنوات. كانت تكتب لي بانتظام ولعل أكثر ما أثار انزعاجها هو خطف قريب لها. ولا أعرف أين تقيم الآن.

لم أكن أعتقد يوماً بأن لليهود الحق بوطن في فلسطين. لذا لم تكن تخطر ببالي قضية الهجرة إلى إسرائيل. قلت يوماً لبيار ڤيدال ناكيه، [مؤرخ يهودي فرنسي] إنني طرحت مرة واحدة احتمال الإقامة في فلسطين، عندما علمت بما جرى مع أهلي في معسكرات الاعتقال النازية، [اختفى والدا رودنسون في المعسكرات النازية ولا يعرف شيأً عن مصيرهما حتى الآن ما يعني أنهما قضيا في المحرقة]. حينذاك، صمتُّ أياماً طويلة دون أن ألفظ كلمة واحدة. بعض اليهود الفرنسيين الذين تولّد لديهم شعور بأنهم أجانب في بلدهم خلال الاحتلال النازي سافروا إلى إسرائيل تحت وطأة رد الفعل. تردّدت لبعض الوقت لكن لم تكن عندي نية للذهاب إلى فلسطين كيفما اتفق. زوجتي، وهي ليست يهودية أبداً، كانت تحلم بالهجرة وتدفعني لذلك لأنها ترغب في أن تصبح مزارعة. تزوجتني وهي تعرف أنني لست مستعداً لهذا الخيار، لكنها اعتقدت أنها قد تتمكن يوماً من حملي على تغيير رأيي شيئاً فشيئاً لكن دون جدوى.

قالت لي: «إذا ذهبنا إلى فلسطين فسوف نعيش في كيبوتز ونعمل في الزراعة ويمكنك أن تتعلم الزراعة». فكرت لبعض الوقت وتساءلت

عمـا يمكـن أن أفعلـه هنـاك، خصوصـاً أننـي أعـرف المجتمـع اليهـودي لأننـي سـافرت ثـلاث مـرات مـن بيـروت إلـى فلسـطين. تسـاءلتُ عمـا يمكننـي أن أفعلـه وسـط هـؤلاء النـاس وقـررت عـدم الهجـرة.

في إحدى الزيارات إلى فلسطين التقيت طبيباً يعيش حول بحيرة طبريا، ابنته البالغة 6 سنوات كانت تتحدث العبرية مثلي بصورة ابتدائية، كنت سعيداً بسماع حديثها. لكن ذلك ليس كافياً لاتخاذ قرار بالهجرة النهائية خصوصاً أنني باريسي قبل كل شيء، وأعرف الفولكلور الباريسي وأعرف أغاني الميوزيك هول الباريسية، فماذا يمكنني أن أفعل مع أناس بينهم عدد كبير من الألمان ناهيك عن أنني فرنسي وسأبقى فرنسياً.

في ذلك الحين لم نكن قادرين على التمييز بين الفلسطيني والسوري واللبناني، كان الجميع عرباً بالنسبة إلينا. جنسياتهم كانت معروفة فقط على جوازات السفر الفرنسية والبريطانية وللتعرف على أي منهم كان يجب التدقيق في جواز سفره.

عرفت يهوداً كانوا يحتجون في حينه على إنشاء دولة إسرائيل، وأعلنوا أنهم فلسطينيون، وكان الحق إلى جانبهم، لأن أوراق هويتهم تثبت ذلك وفلسطينيتهم تعطيهم الحق بالاحتجاج على إنشاء دولة إسرائيل الغريبة عنهم.

اتصلـت بهـم، ولكنهـم فـي ذلـك الوقـت لـم يكونـوا كثـراً لسـوء الحـظ، رغـم أنهـم كانـوا ينشـطون بقـوة. كان اتصالـي بهـم ناتجـاً عـن أن عملـي فـي

قسم الأنتيكا يقضي، (جزئياً)، بشراء كتبٍ وكنت أعرف الكثير من أصحاب المكتبات، من اليهود والعرب في القدس. كان المهاجرون اليهود من النمسا وألمانيا يحملون كتباً معهم ويبيعونها لأصحاب هذه المكتبات وهي مفيدة للغاية، اشتريت عدداً منها لي وللقسم وبعضها ما زلت أحتفظ به.

كانت آخر زياراتي للقدس في العام 1947 وشعرت خلالها بألم كبير بسبب انتشار الأسلاك الشائكة في المدينة. لكن المرات السابقة كانت مفيدة ومريحة ولم تتخللها أية مشاكل. أذكر أنني زرت القسم العربي من المدينة، وحضرت احتفال تنصيب الملك عبدالله ملكاً على الأردن من قِبل الفلسطينيين في العام 1944-1945.

ما عدا القدس، زرتُ مدينة يافا في العام 1947 مع زميلة لي، بوصفنا شيوعيين. قصدنا مكتب الحزب الشيوعي وكان ما زال موحداً بين العرب واليهود. والتقينا قائد الحزب الكبير فؤاد نصار. واتصلنا بفريق من اليهود شكل أعضاؤه وحدة سموها «إيهود» أي «وحدة». وطالب هذا الفريق بدولة مزدوجة الجنسية وكان ذلك ممكناً في 1947-1948 وحظي هذا المشروع بتأييد رئيس الجامعة العبرية في القدس يهودا مكنس الذي لم يعترف قط بدولة إسرائيل، ولم يضع قدمه فيها فيما بعد وهو مات في شيكاغو ودفن هناك حيث كان لويس ماسينيون يزور قبره باستمرار.

اتخذت هذه المجموعة موقفاً شجاعاً عندما اعترضت على إنشاء دولة إسرائيل، وعاش بعض أعضائها من العرب في قرية بيت جالا التي اندمجت الآن مع القدس. لقد تبنوا فكرة دولة ثنائية الجنسية وأصرّوا على خيارهم.

في الأنتيكا وأثريّات أخرى

في صيدا كنت أعيش غارقاً في المحيط باعتبار أنني الفرنسي الوحيد الذي يُدرّسُ في مدرسة مسلمة، وكنت هناك أقضي الوقت كله مع الناس، أستمع إلى أحاديثهم وأغانيهم وذلك بخلاف بيروت. هنا عشتُ في وسط فرنسي واتصلتُ بالعرب كثيراً، في الحي الذي أسكن فيه أو في قسم الأنتيكا، (الآثار القديمة)، حيث أعمل.

يقع قسم الأنتيكا في بناية مواجهة لبناية الرئيس بشارة الخوري. كانت القنصلية الفرنسية في الطابق الأرضي ونحن نحتل قسماً من الطابق الأول في حين تحتل مستشارية المعارف القسم الآخر. وكانت مكاتبنا تطل على فناء كبير.

كان يعمل في هذا القسم حاجب لطيف اسمه علي رحّال، وهو يجيد الفرنسية والترجمة من العربية إلى الفرنسية وبالعكس. وتستدعي مهمته إرشاد الناس إلى المكاتب. وعندما كنا نحتاج إلى شيء ما بالعربية كنا نستدعي علي رحّال الذي يجد حلاً سريعاً لمشاكل ناتجة من اللغة والاتصال باللبنانيين.

عندما بدأت عملي في قسم الأنتيكا كان هناك موظف اسمه ألبير ناصيف أصبح سفيراً فيما بعد. كان مارونياً طيباً ومؤمناً، وكانت والدته تريده أن يصبح راهباً لكنه اختار حياةً أخرى وحافظ على تدينه. لذا شغل منصب سفير للمرة الأولى في الفاتيكان.

كان ناصيف يعمل قبلي في المكتب، ويهتم بالعلاقات العامة مع الناس في الريف. ويقوم جزء من عمله على الإشراف على المضابط التي تنظمها الجندرمة. كان يأتينا بالمضابط الموجهة إلى هذا أو ذاك من الناس في أي مكان في سوريا ولبنان... وهم أناس يُضبطون أثناء عبثهم بالآثار أو التبوّل في مناطق أثرية. وكان ينادي علي رحّال ليترجم له لأنه لم يكن يعرف العربية جيداً.

من جهتي لم أتعود الكتابة باليد لكن ذلك ليس صعباً، فتعلمتُ بسرعة وصرتُ أهتمّ بنفسي بكل شيء. لذا قلتُ لعلي رحّال أنا لا أحتاج إليك في هذا المجال وإن احتجت أستدعيك. لم يرق ناصيف ذلك وشعر بشيء من الانزعاج.

أذكر أنه أثناء الاستقلال بادر اليسوعيون إلى تنظيم دروس سريعة باللغة العربية لأصدقائهم وأنصارهم كي يضعوهم في مراكز إدارية مهمة بعد الاستقلال، خصوصاً في الأشهر الأولى. وبما أن ألبير ناصيف كان عنصراً مهماً بالنسبة إليهم فقد أخضع للدروس العربية وحقق تقدماً... إلى أن قدّم لي ذات يوم بطاقة تعريف خاصة به باللغة العربية.

تغيّرت أشياء كثيرة في حياتي في قسم الأنتيكا، ففيه صرت أربح مالاً أكثر وأستفيد من التعاونيات المخصصة في حينه للفرنسيين وكنت أُدعى إلى الاحتفالات الكبرى، ومن بينها احتفال نُظِّم أثناء زيارة شارل ديغول إلى بيروت وحضره مئة مدعوّ، صافحت خلاله الجنرال ولم أقل شيئاً. الوحيدة التي تحدثت إليه كانت مالكة المنزل الذي أسكن فيه السيدة بدران التي خاطبت ديغول بقولها: سيدي الجنرال آمل أن تكون بصحة جيدة أنت وزوجتك وأطفالك.

لم يكن ديغول في ذلك الحين يتمتع بسحر خاص لدى اللبنانيين، وكان يُنظرُ إليه بصورة سلبية من قِبل معظم الفرنسيين. أذكر أنني كنت ذات يوم مع الأب اليسوعي بوادبار (Poidebard) في زيارة لرياق في البقاع لأسباب أركيولوجية، وبالمناسبة كان هو أول من دشّن التصوير الجوي لأغراض أركيولوجية، اشتركنا إذن في مهمة لهذه الغاية في رياق حيث كان يجب أن نتسلم صوراً جوية تمّ التقاطها لمواقع أثرية. حينذاك كانت سلطات فرنسا الحرة قد طردت زعيم اليسوعيين الفرنسيين الأب شنتير (Chanteur). ووضُع في تاكسي وأُرسل على جناح السرعة إلى برازافيل لقيامه بأعمال دعاوية مضادة لديغول ومؤيدة لڤيشي، الأمر الذي جعل اليسوعيين الآخرين يغضبون ويحتجون. يومذاك قال لي بوادبار معلقاً: «إذا استمر الوضع على هذه الحال وإذا استمر استياؤنا بسبب ديغول فسنرفع علم الفاتيكان. ليكفوا عن إغضابنا بهذه القصص الفرنسية- الفرنسية».

كانت بيروت في ذلك الحين مركزاً لقوميين عرب معروفين، تعرفت إليهم هناك قبل أن أصبح مشهوراً، لكنني تابعت أخبارهم فيما بعد. وأذكرُ أنني قبل أن أعمل في صيدا، وقبل أن ألتحق بالبعثة الأركيولوجية في بيروت، كنت أبحث عن عمل وعرضت خدماتي على الجامعة الأميركية، في القسم الفرنسي بالتحديد. فاختاروا لامتحاني وتقدير كفاءتي شخصين هما أسد رستم وقسطنطين زريق. بعد ذلك تخلصوا مني لسبب أجهله مؤكِّدين أن التعليم في الجامعة يجب أن يتم باللغة الإنكليزية على ما أظن. لم أكن أعرف الإنكليزية جيداً بل كنت أتحدثُ بها بطريقة سيئة.

لاحظ رستم و زريق أنني أعرف أشياء كثيرة. كانت لدي معرفة بالفينيقية والأركيولوجيا واللغة العربية والمؤرخين العرب. التقيت فيما بعد زريق عندما صرت معروفاً، وحاولت تذكيره فلم يتذكر. وقد كتبتُ مقالاً منذ فترة بالاستناد إلى مؤلفاته بعنوان «الوعي القومي وموقعه في الفكر القومي العربي» صدر عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية عام 1988 ضمن مجموعة أبحاث وضعت تكريماً للدكتور قسطنطين زريق واشرف عليها الدكتور هشام نشابة.

ما زلت حتى الآن قادراً على الحديث باللهجة اللبنانية لشرح قضية ما، ولكن لدي صعوبات في الحديث باللغة العربية الفصحى، لأنني لم أستخدم هذه اللغة إلّا نادراً ومنذ وقت طويل. تنقصني أحياناً بعض الكلمات، لكن إذا التقيت أحداً في الشارع فيمكنني أن أتحدث معه،

وما زلت حتى الآن أقصد بعض المطاعم في باريس حيث أتناول أطباقاً لبنانية.

لا بد أن أشير هنا إلى أن الطلاب العرب في بيروت كانوا مقسومين إلى قسمين. القوميون كانوا يتجمعون في الجامعة الأميركية في حين كان الآخرون يقصدون اليسوعية، ولم تكن الولايات المتحدة في تلك الفترة مثار نقمة كما هي اليوم. كانت النقمة في حينه منصبة على بريطانيا.

كانت النخبة القومية تعمل في الجامعة الأميركية إذن، وكان من خريجي الجامعة جورج حبش الذي أصبح قومياً معروفاً فيما بعد. في حين تحوّل ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار إلى قوميين في فرنسا بعدما قرآ أندريه جيدْ. كانا في البداية اشتراكيين وبعد قراءة جيدْ صارا قوميّين.

في ذلك الوقت كانت فرنسا تسمح بتشجيع الحركات المضادة لبريطانيا وهذه الأخيرة تشجع الحركات المناهضة لفرنسا. جمال الدين الأفغاني مثلاً قضى عمره راكضاً وراء هذه القوة الاستعمارية أو تلك، وكان من بين الذين ركض وراءهم الإنكليز والفرنسيون والروس. يجب ألّا ننسى أن باريس كانت تُؤوي في ذلك الحين الكثير من الثوريين الديمقراطيين الروس والسويسريين وغيرهم ومن ضمنهم العرب.

في تلك الفترة ازدادت نشاطاتي الكتابية، لكنها كانت تتعرض

لمواضيـع جزئيـة. فقـد نشـرت فـي 1943 كتابـاً بالفرنسـية، ترجمـه قـدري قلعجـي، وكان مـن قبيـل الدعايـة الفرنسـية واسـمه جهـود *فرنسـا الأثريـة فـي لبنـان وسـوريا*. وهـو فـي الأصـل تقريـر كتبتـه حـول الموضـوع بطلـب مـن قسـم الآثـار القديمـة. وقّعْتُ الكتـاب باسـم مسـتعار هـو جـان رونسـان، لأننـي كنـت أعمـل مـع الديغولييـن فـي بيـروت وأهلـي تحـت سـلطة النازييـن فـي فرنسـا.

لم أكن أرغب في وضع اسمي الصريح على الكتاب لأنني كنت أخشى أن يعرف النازيون ذلك في فرنسا وأن ينتقموا من أبي وأمي. لكن ذلك لم يكن مفيداً، لأن أهلي كانوا قد سيقوا إلى معسكرات النازية دون أن أعرف تماماً ما حلّ بهم.

كان أهلي يقيمون عموماً في باريس. أبي يبلغ الثمانين من عمره. اقتيد أولاً إلى معسكرات الاعتقال النازية وتلته والدتي ولم أعرف بذلك إلّا بعد تحرير فرنسا. ولم يبق من عائلتي إلّا أختي التي لا تخبرني بشيء. أما عائلة زوجتي فكانت تعرف تفاصيل ما جرى لكنهم رفضوا إخباري، وقرروا أن على أختي أن تتولى ذلك. وهكذا كُتِبَ عليّ الانتظار إلى أن جاءتني يوماً رسالة من إحدى الوزارات المختصة تؤكد لي أن والديّ اقتيدا إلى أوشويتز وأنه من المرجح أن يكون والدي قد مات أثناء الاعتقال أو على الطريق، ربما لأنه كان كهلاً ومريضاً ولم يتحمل متاعب السفر.

حينـذاك لـم يكـن أحـد قـادراً علـى تقديـر حجـم الرعـب الـذي يمكـن

أن تصـل إليـه النازيـة تجـاه اليهـود. لـذا كان هـؤلاء يتقدمـون طواعيـة مـن الهيئـات المختصـة. كان بعضهـم يعتقـد أن الألمـان عازمـون علـى تجميـع اليهود ليقيمـوا لهـم دولـة تابعـة فـي بولونيـا. لـم يكـن أحـد يفكـر أن النازيـة سـترتكب مذابـح بهـذا الحجـم.

انتظرت شهوراً عودة والدتي؛ كنت أتخيل أنها ربما ضاعت على الحدود الروسية أو أنها ربما عادت ولم تصل إلى المنزل لسبب ما. لكن طال الانتظار وأيقنت في العام 1947 أن أحداً منهما لن يعود!



16 أيار 1943 في حديقة منزله في شارع منيمنة خلف فندق بريستول اليوم



1941 أمام قصر سان لويس في صيدا



ديسمبر 1945 في بيروت أثناء الاحتفال بعمادة بنت الأصدقاء من عائلة مارشان

الثلاثي الشيوعي: بكداش والحلو والشاوي

التقيت قادة الحزب الشيوعي مصادفةً في نهاية العام 1941 في بيروت. كنت ذات يوم أتابع مسألة إدارية في السرايا الكبير فصادفت في أحد الأروقة صحافياً معروفاً من أصل إيراني أو عربي لم أعد أذكر، لكنه يتحدث الفرنسية جيداً، وهو توفي منذ بعض الوقت في الكوت دازور. كان يوصف بأنه لوطي ولم يكن بوسعي التحقق من ذلك.

كان برفقة هذا الصحفي ثلاثة أشخاص لم أعرفهم من قبل. صافحته فبادر فوراً بالحديث إلى أولئك الأشخاص وقال مشيراً إليّ: هذا من جماعتكم. إنه ينتمي إلى الحزب الشيوعي الفرنسي. انتفض الثلاثة وتساءلوا بدهشة: كيف! كيف! كيف لا نعرفك؟ قلت لهم إنني شيوعي من القاعدة ولست عضواً بارزاً في الحزب. الثلاثة هم خالد بكداش وفرج الله الحلو ونقولا الشاوي.

جاء هؤلاء إلى السرايا في نهاية العام 1941 للتقدم بطلب السماح لهم بإعادة إصدار صحيفتهم، *صوت الشعب* التي كانت محظورة خلال فترة الحكم الڤيشي. وكانوا يتوسطون للترخيص لها بالصدور.

كانت السلطات الفرنسية مستعدة للسماح بإصدار الصحيفة، ليس لأنها ذات اتجاه شيوعي، ولكن الظروف قضت في ذلك الحين أن يكون الاتحاد السوڤياتي صديقاً لفرنسا الحرة التي لم يكن لها الكثير من الأصدقاء. كان الإنكليز موجودين ويريدون احتلال كل المسرح، وكان يوجد ممثل للولايات المتحدة الأميركية دون أن تكون له سلطات مهمة، وكان السوڤيات موجودين وهم يدعمون الجنرال ديغول بقوة ضد إنكلترا ولفرنسا الحرة المصلحة في هذا الدعم، لذا كانت مستعدة للتساهل مع الشيوعيين المحليين.

أذكر أن افتتاحيات *صوت الشعب* في نهاية 1941 وبداية 1942، كانت موجهة ضد الانتظاريين، أي الذين ينتظرون مجرى الريح حتى يميلوا معها، والمقصود بذلك البرجوازية اللبنانية والسورية، ومن بينها المارونية التي كانت مع فرنسا دون الجنرال ديغول، وتفضِّل عليه الماريشال بيتان. كان الآباء اليسوعيون يقومون بأعمال دعاوية ضد ديغول، وقد اكتشفت ذلك مبكراً. فعندما جاءت زوجتي إلى بيروت في الباخرة من مارسيليا، تعرفتْ على ثلاثة من الآباء اليسوعيين وتعرفنا عليهم أكثر فيما بعد؛ وكنت قد عرفتُ أحدهم سابقاً في مركز الدراسات الشرقية. أحدهم أعطى زوجتي بيانات كي تسلمني إياها وهي تحمل بقوة على الجنرال ديغول. أحدهم يُسمّى الأب تالون، وقد أُرسل فيما بعد إلى حلب، وكان إرساله بمثابة إبعاد له من طرف سلطات فرنسا الحرة التي علمت بأمره عِلْمها بأن كل اليسوعيين مناهضون لديغول.

واحد منهم فقط، هو الأب شارل، كان مهتماً بدراسة البدو وكان متقدماً بمواقفه تجاه فرنسا الحرة. كانت *صوت الشعب* تنتقد هؤلاء بشدة.

التقيت إذن في رواق السرايا الشيوعيين الثلاثة الذين أخذوا علماً بوجودي، واهتموا بذلك ليس لأنني قيادي في الحزب الشيوعي الفرنسي، ولكن لأن الفرنسي كان في حينه مهمّاً؛ وبغض النظر عن شأنه ومكانته يتمتع بشيء من النفوذ. وكنا نحن الفرنسيين نعرف بعضنا بعضاً وبالتالي يمكن لأي منا تقديم خدمات معينة في الإدارة.

كنت في حينه صديقاً لإدوار بيرلان وهو عمل في البداية مدرساً لمادة التاريخ في الليسيه الفرنسية في بيروت، وكان يحتفظ بتأثير كبير في عدد من تلاميذه الذين التقيت بعضهم. لم يكن شيوعياً ولكنه كان يسارياً عنيداً. أصبح بيرلان فيما بعد مديراً للصحافة في السرايا وكنت أتدخل لديه لمصلحة الشيوعيين. وتدخلت لمصلحتهم أيضاً مع المدير السابق للصحافة شلومبيرجيه الذي لم يكن يسارياً ولا يمينياً، وإنما بدون ماركة سياسية. وبما أنه كان أركيولوجياً مثلي فقد نشأت علاقة بيننا سهلت عليّ التدخل قليلاً إذا ما اقتضى الأمر، كما في حالة الشيوعيين اللبنانيين الراغبين في إعادة إصدار صحيفتهم.

صرتُ على علاقة بالشيوعيين اللبنانيين حتى إنني كتبتُ مقالاً أو اثنين في مجلة *الطريق* التي يصدرها الحزب وكان أول مقال لي حول الماركسية وذلك في بداية العام 1942. كتبتُ المقال بالفرنسية لكنني أشرفت على ترجمته للعربية بالتعاون مع قدري قلعجي الذي كان

شيوعياً في بداية حياته ثم غيّر اتجاهه فيما بعد، وقد ترجم لي مقالاً آخر نشرته في مجلة *سومر* المختصة بالآثار العراقية.

كان مقالي في *الطريق* هو الأول حول الماركسية. نشرت قبله عدداً من المقالات الصغيرة في الصحف البيروتية لكن حول أشياء لا تتصل بالسياسة المحلّية.

كان لا بد من إلمام ولو بسيط بعلم النفس، للتمييز بين أمزجة القادة الشيوعيين الثلاثة الذين التقيتهم. خالد بكداش كان رجلاً موهوباً يتحدث العربية والفرنسية بأناقة كبيرة. ويبدو أنه حصل على درجات تعليمية جيدة ويبدو أيضاً أنه هجر اللغة الكردية والانتماء الكردي لمصلحة القومية العربية، مع استثناء وحيد ربما، وهو أنه كان يتفاخر أمام رفاقه العرب بأصله الكردي عندما يسكر، ويقول لهم باعتزاز: أنتم عرب ساميّون ولكن أنا آري أرفع منكم ثم يبادر إلى التلفظ بعبارات كردية. هذا على الأقل ما رواه لي أحد رفاقهم اليهود لأنني لم أكن على علاقة حميمة مع بكداش ومع المقربين منه. لم يكن بكداش يبعث الثقة في نفسي لكنه كان يعجبني.

أما فرج اللّه الحلو فأحببته كثيراً. كان ناعماً وعقلانياً ولطيفاً للغاية ويبدو لي أنه يتمتع بصفاء كبير وصدق فائق. لم يكن مندفعاً وراء طموحات شخصية. عندما غادرت لبنان في 1947 كان يتم التحضير لإبعاده إلى الصفّ الثاني.

أما نقولا الشاوي فهو ذكي ولامع ومناور أكثر من فرج اللّه الحلو، وقادر على السباحة وسط التيارات وفبركة الكومبينات.

انتقدت خالد بكداش عدة مرات في خاصّة نفسي، كان يبدو بنظري مترفعاً ومدّعياً. كنتُ أقرأ *صوت الشعب* يومياً، ولم تكن تعجبني طريقتهم في توزيعها. ذات يوم قلت لبكداش: لماذا تحرص أثناء جولاتك الدعائية على النزول في الفنادق الكبرى وتهمل السكن في وسط الجماهير. فأجابني أنه تعلم ذلك في موسكو، وزعم أنهم قالوا له هناك: يجب أن تظهر بوقار لاستجلاب الاحترام. وهو بالفعل كان قد خضع مع الشاوي والحلو لدورة تثقيفية في موسكو في الأعوام 1930-1935. وكان الثلاثة يروون تفاصيل ما جرى معهم هناك بصورة دورية. علماً أن بكداش كان دائم التردد إلى بيروت لأن الحزب الشيوعي في حينه كان لا يزال بعد حزباً مشتركاً بين سوريا ولبنان. ومن بين البارزين في حينه أرتين مادويان الذي كان يفضل البقاء خلف الأضواء.

لم يعجبني كثيراً رد خالد بكداش على سؤالي ولم تعجبني حججه حول ضرورة اكتساب أبناء العائلات المرموقة إلى دعم الحزب. ولعل ذلك اللاإعجاب كان متبادلاً بيننا، بخلاف فرج اللّه الحلو الذي كان شجاعاً ومتواضعاً وقائداً جيداً. كنت أحبه وأعتقد أنه بادلني الحب. أما الوحيد الذي كان بوسعي أن أتحدث معه في كل شيء فهو نقولا الشاوي وهو رجل عملي للغاية.

جاءنا في العام 1945 نواب شيوعيون فرنسيون من الجزائر قبل الإنزال العسكري الكبير للحلفاء في النورماندي، ورغم أن السلطات

الفرنسـية فـي بيـروت لـم تكـن تحـب الشـيوعيين كثيـراً فلقـد كانـت مضطـرة لمسـايرة الموقـف، وبالتالـي اسـتقبالهم بوصفهـم حلفـاء. عقـدوا نـدوة كبيـرة فـي التياتـرو الكبيـر. وحضـر هـذه النـدوة عـدد كبيـر مـن النـاس. ودار خـلاف قبلهـا حـول مـن يتولـى إداراتهـا وحـول مـن يحتـل مقاعـد المنصّـة. فقـال السـوريون اللبنانيـون: هـذه النـدوة ليسـت للشـيوعيين الفرنسـيين إنهـا نـدوة للشـيوعيين السـوريين اللبنانييـن الذيـن دعـوا بعـض الفرنسـيين. وقالـوا: أنتـم عندنـا ونحـن ندعوكـم وليـس العكـس. وكانـت هـذه المنـاورة ناجحـة مـن طـرف خالـد بكـداش.

أذكر أنه عندما بدأ بكداش المفوه حقاً خطابه من على المنصة أخذ يتكلم بلهجة حماسية أثارت بحّاراً فرنسياً كان يقف بجانبي ولا يفهم العربية، وكان يسألني عما يقوله خالد بكداش. وقبلما أفرغ من الترجمة كان البحار ينطلق بحماسة ويقول: براڤو، براڤو، براڤو. بكداش كان ستالينياً مخلصاً وما زال، [توفي خالد بكداش أثناء إعداد هذا النص وقبل طبعه]، يعتمد منهج البساطة ويأخذ الأمور بسهولة تامة.

يتخذ الشيوعيون في لبنان، كسائر الشيوعيين في العالم، المواقف المبدئية نفسها، وكانوا يتعرضون لاتهامات بعضها غير صحيح. دافعت عنهم ضد الاتهامات التي تقول إنهم كانوا معادين للقومية العربية. لأنهم كانوا يعتقدون في حينه أن الأولوية يجب أن تكون لدحر النازية وللدفاع عن الاتحاد السوڤياتي بوصفه أول مجتمع اشتراكي في التاريخ، وأنه بعد ذلك تأتي الأولويات الأخرى. كانوا يفكّرون كما

يُفكّر الشيوعيون في كل مكان وتعرضوا لاتهامات كثيرة بسبب موقفهم من قضية فلسطين.

كانوا في ذلك الحين يتحركون على أرضية غيرواضحة تماماً ككثير من الفئات السياسية غيرهم، ويدافعون عن مجتمع مختلط ثنائي الهوية العربية واليهودية. كان موقفهم هذا شبيهاً بموقف جماعة توحيدية يهودية تطالب بمجتمع ثنائي الهوية في فلسطين، وقد اتصلتُ بهذه المجموعة في القدس وتعرفتُ على آرائها في هذه المسألة. وكانوا ككل الأحزاب الشيوعية ضد تقسيم فلسطين لكنهم تخلوا عن هذا الموقف في العام 1947.

وأذكر كيف تغير موقفهم في العام 1947، ذلك أنني كنت في طريقي إلى مكتب الحزب، وهو آخر شيء فعلته قبل رحيلي من بيروت. أردت وداعهم وإعطاءهم قليلاً من المال قبل عودتي إلى فرنسا. التقيت هناك نقولا الشاوي وبادرت لتوديعه فقال لي: إبق هنا! إبق هنا! قلت: لا أستطيع لأن الباخرة ستقلع بعد قليل. فقال: يجب أن تبقى لأن شيئاً رهيباً جرى في الأمم المتحدة إذ طلب أندريه غروميكو تقسيم فلسطين إلى دولتين، واحدة يهودية والثانية عربية. وقال لي: ترجم لي هذا النص قبل ذهابك وكان نصاً يتحدث عن تقسيم فلسطين.

أُطلق على هذا الموقف اسم«وعد بلفور الشيوعي». كان أمراً رهيباً بالنسبة إلى الشيوعيين اللبنانيين والسوريين، لأنهم وقفوا حتى عشية

ذلك اليوم ضد التقسيم. بعد صدور موقف غروميكو ترددوا بعض الشيء لكنهم قرروا فيما بعد الالتزام بالقرار السوفياتي المذكور.

انضمت إلى الشيوعيين في بيروت نخبٌ معينة وشخصيات يسارية كبيرة، من بينها فؤاد قازان وهو شيوعي تعرفت عليه في لبنان واستضافني في إحدى القرى الجبلية. أقام قبل ذلك في فرنسا وشارك في حرب العصابات ضد النازية. كان مستقلاً في تفكيره أكثر من غيره من الشيوعيين اللنانيين.

لكن العائلية تلعب دوراً في حياة الحزب أكثر من الطائفية. كان فرج اللّه الحلو مثلاً محاطاً بعدد كبير من أبناء عائلته وأحدهم معروف واسمه يوسف خطار الحلو وكان من المتصلّبين حينذاك. عدد قليل جداً من اليهود انتمى إلى الحزب. أما السُّنة فكانوا أقلية ضئيلة فيه.

اعتمد الحزب الشيوعي مقاييس أخلاقية في صفوفه رغم أنه تميز بقلة التنظيم وبالتهاون، حيث كان بالإمكان الدخول والخروج منه وإليه بصورة مائعة. ذات يوم سألت خالد بكداش أو نقولا الشاوي عن أحوال الحزب فروى لي أن ممثل الشيوعيين السابق في باريس تعرض للفصل من الحزب لأنه اختلس أموالاً من الصندوق الحزبي. كان انطباعي في حينه أن البطاقة الحزبية ليست مهمة في حياة هذا الحزب.

كان الشيوعيون يكرهون الأحزاب اليمينية التي تبادلهم المشاعر ذاتها. لكن الحزب القومي السوري كان العدو رقم واحد. لم أكن أعرف القوميين العرب لأن حركتهم كانت ناشئة ولم يكن لهم وجود

محدد في حينه؛ كانوا يشكلون نواة، لكن التيار القومي كان منتشراً بين الناس الذين يعتبرون أنفسهم قوميين بدون تنظيم محدد؛ لذا لا يمكنني الحديث عن علاقة الشيوعيين اللبنانيين بالتيار القومي العربي.

كان الحزب الشيوعي يشدد على العربية، ولديه شخصية مهمة في الأدب العربي هو عمر فاخوري. وكان يهمني أن أقارن وألاحظ كيف ينسخ الحزب تجارب الشيوعيين في بلدان أخرى. كان فاخوري بالنسبة إليهم مثقفاً كبيراً وخبيراً بالأدب العربي كما لوي أراغون بالنسبة إلى الشيوعيين الفرنسيين. مات عمر فاخوري في حينه وأعتقد أنني شاركت في حضور دفنه.

لم أعد أرى أيّاً من الشيوعيين اللبنانيين بعد رجوعي إلى باريس، لكن بعد عشرين سنة على رحيلي من بيروت عدتُ إليها مرتين أو ثلاثاً بدعوة من جانين ربيز التي كانت تدير«دار الفن والأدب». دعتني لإلقاء عددٍ من المحاضرات. وفي آخر يوم من آخر زيارة جاءتني شبه بعثة شيوعية إلى حيث أقيم في فندق بريستول عضواها نقولا الشاوي وأرتين مادويان. كان ذلك في كانون الأول/ديسمبر عام 1968. يومها كنت قد أصبحت «مشهوراً» ولم أعد عضواً في الحزب الشيوعي الفرنسي.

قبل أن تأتيني هذه البعثة، كنتُ في باريس قد تعرفت على مستشار في السفار الأميركية، واكتشفت أنه أصبح في بيروت مستشاراً لشؤون العمل في سفارة بلاده. حاول في باريس التقرب مني كثيراً. وما إن

علـم أننـي فـي بيـروت حتـى بـادر إلـى إرسـال باقـة زهـور عملاقـة إلـى غرفتـي فـي الفنـدق، وأصـر علـى دعوتـي إلـى العشـاء فـي منزلـه الجميـل فـي رأس بيـروت. وبمـا أنـه مستشـار لشـؤون العمـل، فقـد دعـا إلـى السـهرة كل رؤسـاء النقابـات اللبنانييـن الكبـار والصغـار علـى السـواء ومـن ضمنهـم الشـيوعيون. لـم يكـن لـدي مـا أقولـه فـي تلـك السـهرة. لـذا اقتصـر الأمـر علـى المجامـلات.

في أثناء مقابلتي البعثة الشيوعية قال لي نقولا الشاوي: «عرفت أن الأميركاني دعاك» وكان تقرير من جماعته في السهرة قد وصله وفيه أنني كنت أتناول العشاء مع المستشار الأميركي! وهو أمر يثير الريبة في صفوف الشيوعيين. في العام 1945 والعامين التاليين كنت أعطي دروساً في الماركسية في مكتب المهندس المدني أنطوان ثابت، وكان بين الحضور عرب وفرنسيون وكان الطرفان يستمعان إلى الدروس بدون مشكلة.

كما كان بين المستمعين عددٌ من السوريين اللبنانيين المنتمين إلى الحزب الشيوعي، وقد جاء خالد بكداش ذات يوم لسماع هذه الدروس، فلم يكن مسروراً لأنها كانت تُعطى بحسب فهمي للماركسية، أي بطريقة غير مُطابقة لقواعد الحركة الشيوعية في ذلك الوقت.

الاستقلال وطوائفه

انقسم اللبنانيون انقساماً واضحاً حول الاستقلال، وكنت ألاحظ أن أحداً في الأوساط الغنية والميسورة لا يحب الحديث عن الاستقلال. أذكر سيدة بورجوازية انتفضت في إحدى المناسبات لأن حفيدها عبّر عن تأييده للاستقلال، وكأنه يلفظ تعبيراً سوقياً أمامها.

كان الشيوعيون وغيرهم من اليساريين مؤيدين عموماً للاستقلال. أما من جهة الفرنسيين المقيمين في بيروت فقد وقفتْ قلة منهم مع الاستقلال. وأذكر أن أحد الفرنسيين كان يؤيد وجهة النظر الإنكليزية في هذا الموضوع، حيث قال إن الإنكليز في منتهى الذكاء لأنهم منحوا الهند استقلالها، ويعملون على الحفاظ على علاقات جيدة مع سكانها. أما الفرنسيون فهم أغبياء يريدون الاحتفاظ بكل شيء وفي النهاية سيفقدون كل شيء وكان قوله صحيحاً.

من الجهة الطائفية كانت مشاعر المسلمين عموماً إلى جانب الاستقلال عن فرنسا، في حين كانت مشاعر المسيحيين، والموارنة خصوصاً، إلى جانب نوع من نظام الحماية الفرنسي. مع استثناء الروم

الأرثوذكس الذين مالوا إلى الاستقلال في حين أن الروم الكاثوليك لم يكن بينهم عدد كبير من مؤيدي الاستقلال.

يختلف وضع المسلمين تجاه هذا الموضوع بين مدينة وأخرى. أعتقد أن الموقف في صيدا كان إلى جانب الاستقلال عن فرنسا والانضمام إلى سوريا. لاحظت ذلك في العام 1943 الذي شهد تحولاً ومنعطفاً. كان معظم مسلمي صيدا ضد الجمهورية اللبنانية ومع سوريا. وكان التعبير عن هذا الرفض يتم غالباً في الخفاء بسبب النظام العسكري الفرنسي، وذلك بخلاف ما يجري في دمشق حيث اندلعت تظاهرات وكان الحديث عنها يتردد في بيروت.

كان لاووست، مدير المعهد الفرنسي في دمشق، على علم بكل ما يجري في المدينة عبر طباخيه؛ وكان فرنسيّو المدينة يعيشون حرارة الوضع من خلال تحركاته، فعندما يترك قصره الواقع خلف الجامع الأموي للذهاب إلى الحي الأوروبي، يدركُ هؤلاء أن حادثاً خطيراً قد وقع ودفعه للاحتماء في الحي خوفاً من ردود الفعل المحلية.

لم يكن الوضع في لبنان على هذه الحال باستثناء صيدا، (وأعتقد طرابلس)، حيث كانت تندلع تظاهرات ويبصق الناس هناك على العلمين اللبناني والفرنسي. أما الشيعة، في حينه، فلم يكن أحد يتحدث عنهم كثيراً. سمعت عنهم ورأيتهم في صيدا وليس في بيروت، لكن ذلك لا يعني شيئاً لأنني لم أكن أعيش في الوسط العربي.

وعندما كان المسيحيون ينشدون في بيروت مع السلطة الرسمية

«كلنا للوطن للعلى للعلم» كان المسلمون في صيدا يردّون عليهم بنشيد «كلنا للورا والبنطلون اهترى» هذا يفصح على الأقل عن الجو الذي كان سائداً بين الطرفين في العام 1943.

كان حقد السكان على الجالية الفرنسية ضئيلاً. وقلة عبّرت عنه وإن فعلت فبطريقة عابرة. ومما أذكره أنني كنت ذات يوم أقف في الصف منتظراً دوري أمام بقالة تديرها امرأة فسمعتها تقول إنها تكره الفرنسيين. لكن الحلاق الذي يحلق لي ذقني لم يكن حاقداً؛ كان لطيفاً للغاية ولو كان لديه شيء في هذا الخصوص لعبّر عنه. كان ابني البكر فد بلغ 8 سنوات في العام 1947ويدرس في الكوليج بروتستانت. جاء ذات يوم إلى المنزل وبادرني بالقول إن في المدرسة فريقين، فريقاً لبنانياً وفريقاً فرنسياً وإن الفريق الفرنسي أفضل من الفريق اللبناني. فصفعته على خده لكي يتعلم رفض العنصرية.

أعتقد أن النظام العسكري يومها لم يكن يسمح للناس في بيروت بالانفلات كثيراً. كان السوريون اللبنانيون يخافون من الجنود السنغاليين المنخرطين في الجيش الفرنسي، ومن الجنود الأستراليين المنخرطين في الجيش البريطاني. في حينه كان اسم «سنغالي» يطلق على كل الجنود السود، علماً أنه كان يوجد أيضاً ڤيتناميون ولبنانيون في صفوف الجيش الفرنسي، ولكنهم كانوا مؤطرين جيداً بكادرات عسكرية فرنسية. وأظن أنه جرت احتجاجات من طرف بعض اللبنانيين في الجيش الفرنسي بعد معركة بير حكيم التي شاركوا فيها دون أن

يُذكر أيّ منهم فاحتج هؤلاء بالقول: من العار أن تمتنع فرنسا عن ذكر مشاركة اللبنانيين في المعركة. عموماً كانت الأكثرية الساحقة من الجنود من غير الفرنسيين، وأعتقد أن النسبة هي 9 من كل عشرة.

بخلاف ذلك كان الوضع في دمشق مرة أخرى يدعو للخوف. هناك كان صديقي عبد الهادي هاشم، وهو من حمص يخشى عليّ عندما أزوره في الحي العربي ويُصرّ على مرافقتي إلى خارج الحي كي لا يحدث لي شيء، علماً بأنني كنت ألبس الزي العسكري. أعتقد أن الجالية الفرنسية هناك أيضاً لم تتعرض لاعتداءات خطيرة إلّا ابتداء من العام 1945.

كانت لحظات الاستقلال دراماتيكية في صيدا وطرابلس بصورة خاصة فضلاً عن تلك الليالي القليلة في الجبل عندما حاول الأمير مجيد أرسلان، وزير الدفاع في حينه، تنظيم عمل معين، لكن ما إن بدأ بالتحضير حتى كان كل شيء قد انتهى.

أعتقد أن ديغول لم يكن يفهم الوضع جيداً في سوريا ولبنان. لكن تطورات الأحداث وتلاحقها جعلاه يستفيد من دروس ما جرى ويقرر ربما فيما بعد منح الجزائر استقلالها في ضوء التجربة السابقة.

لـم نكـن نعـرف فـي بدايـة 1943مـن يمسـك بالسـلطة فـي بيـروت. كان ديغـول فـي الجزائـر ومـن المحتمـل أن يكـون قـد أعطـى تعليمـات معينـة لممثلـه فـي بيـروت جـان هيللـو (Jean Helleu) لكـن هـذا الأخيـر فسّـرها بطريقـة سـيئة. وبالتالـي أقـدم علـى اعتقـال الزعمـاء اللبنانييـن وزجّهـم فـي

سـجن راشـيا. كان هيللـو غبيـاً وسـكّيراً مفرطـاً يشـرب الكحـول مـن الصبـاح حتـى المسـاء بـدون انقطـاع لـذا كانـت تصرفاتـه مسـيئة جـداً.

بدأ الأمر بأن تدخلت القوات الإنكليزية في لبنان مع الديغوليين، لمصلحة الاستقلال وكان كاترو يومها ممثلاً للجنرال ديغول. أعلن الاستقلال و إجراء انتخابات لاختيار ممثلين للشعب. احتج السوريون اللبنانيون لتأخّر تحقيق هذا الإعلان وبدؤوا القيام بنشاط سياسي مناهض للإدارة الفرنسية في سوريا ولبنان. لم يكن ديغول يريد إعطاء لبنان استقلاله فوراً؛ كان موقفه قانونياً خالصاً ومفهوماً من الناحية القانونية، لكن مع ذلك كان موقفاً مجرداً وغير مقبول من الجهة السياسية.

كان ديغول يقول إن فرنسا منتدبة في لبنان بتكليف من المجتمع الدولي والحرب لم تنتهِ بعد، وعندما تنتهي تعيد هذا الانتداب إلى الأمم المتحدة وهي تقرر ساعتئذ مصير لبنان فتضع من تشاء أو تعطي البلد استقلاله.

بعد انتشار هذا الموقف اندلعت تظاهرات وقامت إضرابات ووضع الاستقلال موضع التنفيذ. ومن مظاهر السخرية في حينه أنه كان يوجد 3 أعياد للاستقلال.

معـروف هنـا أن الإنكليـز منـذ دخولهـم إلـى لبنـان فـي العـام 1941 حصلـوا علـى موافقـة مـن الفرنسـيين بإعطـاء هـذا البلـد اسـتقلاله، وبالتالـي إجـراء انتخابـات، وظلـوا متمسـكين بهـذا الموقـف. ثـم ضغطـوا مـن أجـل

حصـول الانتخابـات التـي أجريـت فـي سـوريا ولبنـان بطريقـة حـرّة نسـبياً. وكان يمكـن التوقـع بـأن يفـوز بهـا الوطنيـون رسـمياً. ولعـل مـا سـهّل مهمـة الوطنيين هـو الاتفـاق بيـن ريـاض الصلـح وبشـارة الخـوري، لـذا كان مـن الصعـب معارضة هـذا التيـار.

كان هيللو في هذا الوقت قد غادر بيروت إلى الجزائر، وجاءت الانتخابات بأكثرية وطنية استقلالية. حاول هيللو العودة بسرعة إلى بيروت لتدارك الموقف، لكن ذلك لم يكن سهلاً في تلك الأيام، إذ كان عليه أن يستقل أكثر من طائرة عسكرية وأن ينتقل من بلدٍ إلى آخر. استفاد النواب من غيابه، وأسرعوا بالاقتراع على مادة من الدستور الذي تمّ إقراره بطريقة ديمقراطية وبموافقة الإنكليز.

ردّت القوات الفرنسية بعملٍ استفزازي من الدرجة الأولى، فاعتقلت أعضاء الحكومة ورئيس الجمهورية ورئيس البرلمان؛ وبما أن هؤلاء كانوا يمثلون كل الطوائف، فقد كان الإجماع تاماً ضد الفرنسيين. وكانت الأيام الخمسة عشر التي استغرقتها الأحداث سوريالية بكل معنى الكلمة.

فمن الجانب العسكري كان لدى الفرنسيين في بيروت 10 آلاف عسكري بينهم 9 آلاف جندي أجنبي من غير الفرنسيين، أي من أبناء المستعمرات. بالمقابل كان لدى الإنكليز أكثر من مائة طائرة مقابل طائرة فرنسية واحدة وألف آلية وقوات كبيرة جداً في لبنان ومحيطه. مارس الإنكليز ضغوطاً كبيرة واتصلوا بقيادة ديغول في الجزائر لحل

المشكلة، لكن ديغول قاوم ضغوطهم واعترض عليها ورفض التراجع وحاول استدراك الموقف بأن أرسل كاترو إلى لبنان. عندما وصل هذا الأخير حاول التدخل بسرعة وإعادة ترتيب الأمور بطريقة ما من دون الاستسلام دفعة واحدة لكن صبر الإنكليز نفد.

ذات صباح جاء الأميرال البريطاني للقاء كاترو في السراي وطلب منه الإفراج عن المساجين في راشيا: «لقد عيل صبري لذا يجب أن يتم الإفراج عنهم قبل السادسة مساء وإلّافإنني سأقصف مقركم في السرايا. تعرفون أن مدافعكم لا تصل إلى أكثر من كيلومتر، (مثلاً)، في حين أن مدى مدفعيتي يصل إلى عدة كيلومترات لذا أنصحكم بتنفيذ ما طلبت بسرعة». حاول كاترو أن يستحضر عبارات تاريخية وأن يغضب، فقال له الأميرال الإنكليزي: «قل ما تريد لكن أسرع فإذا لم تحرروا السجناء قبل السادسة فسأطلق النار». وأخيراً استجاب الفرنسيون.

في تلك الفترة انطلقت تظاهرات في صور وصيدا وغيرهما وأطلقت القوات الفرنسية النار لكن تمّ تحرير السجناء فيما بعد. وقد شاهدت ذلك مباشرة انطلاقاً من مقر عملي في قسم الأركيولوجيا التابع للسفارة.

كان راديو فرنسا الحرّة في ذلك الحين يبثّ من بيروت، وينقل تفاصيل الضغوط الإنكليزية على الفرنسيين، مرفقة بشتائم للإنكليز ضدّ نابليون بونابرت وجاندارك. لذا كان الألمان الذين يلتقطون بث الإذاعة قادرين أن يقولوا للفرنسيين في فرنسا المحتلة: أنظروا كيف

يعامل الإنكليز الفرنسيين الأحرار المرتبطين بهم. في نهاية المطاف أُطلق السجناء واستمر انتقال السلطة مدة سنتين كما هو معروف.

أذكر حينذاك أنني كنت مؤيداً للاستقلال، وكان أحد أحفاد الأمير عبد القادر الجزائري، وهو ضابط في الجيش الفرنسي، مناهضاً للاستقلال في سوريا ولبنان ويعتبر أن الاستقلال اختراع إنكليزي، وأن القومية العربية اختراع إنكليزي وقد تجادلت معه في العام 1961 حول استقلال الجزائر لأنه كان أيضاً معارضاً لهذا الاستقلال. والسبب عدا عن كونه ضابطاً فرنسياً، هو أنه متزوجٌ سيدة يهودية من فلسطين.

حصل لبنان على استقلاله، وبدأ انتقال السلطة إلى اللبنانيين في ظروف هادئة عموماً، وفي هذه الفترة بدأ الانتقال التدريجي لكثير من الفرنسيين من بيروت إلى فرنسا وانتهى الأمر في 1946-1947 حيث غادرت شخصياً في 2 حزيران/يونيو من العام 1947.

عبقريَّة كولونياليَّة:
نقل الكعبة إلى داكار!

بعد أيام الاستقلال العشرة عادت الحياة إلى مجراها، وبدأ تسلّم وتسليم السلطات بين الفرنسيين واللنانيين. كل سلطة عى حدة وجرى ذلك بدون مشاكل كثيرة.

في هذا الوقت بدأت تصفية قسم الأنتيكا الذي كان تابعاً لفرنسا الحرة، وكان عليّ أن أنخرط في عمل آخر كالديبلوماسية. لكن الديبلوماسية الفرنسية استثنتني من العمل في سوريا ولبنان. كان يجري تصنيف الناس حينذاك، وبالتحديد في فترة ما بعد تحرير فرنسا من النازية. كنت شيوعياً فتمّ استثنائي إلى أن رحلت من لبنان في حزيران/يونيو عام 1947. لكن البعثة الأركيولوجية واصلت دفع راتبي بانتظار تعييني في مكان آخر. هنا لا بد من العودة إلى الوراء لرسم السياق العام لتلك الفترة.

كان التصـور العـام أن الديغوليـين هـم أبطـال يعملـون مـن أجـل فرنسـا، وأن الڤيشـيين حقيـرون يعملـون لخدمـة النازيـة وألمانيـا. أعتقـد

أن الصــورة ليســت علــى هــذا النحــو. وأظــن أن كلّاً منهمــا كان يفكــر فــي قضايــاه الخاصــة. ولا ينفــي ذلــك وجــود أبطــال بطبيعــة الحــال.

في العام 1941 عندما جاء الفرنسيون الأحرار إلى لبنان وقعت معركة صغيرة بين الطرفين كانت قصيرة لحسن الحظ، لكن مع ذلك سقط خلالها قتلى بين الفرنسيين التابعين لڤيشي وديغول، وانتهى الأمر باتفاق بينهما نص على أن الموظفين المدنيين والعسكريين الفرنسيين يمكنهم أن يختاروا بحرّية بين العودة إلى فرنسا ووضع أنفسهم بتصرّف حكومة ڤيشي، وبين الانخراط في الوحدات الديغولية وفي خدمتها، أو أن يتخذوا موقفاً محايداً وبالتالي يضعوا أنفسهم عملياً بتصرف فرنسا الحرّة ويبقوا في بيروت.

من جهتي لم أكن في حينه قد اتخذت موقفاً لمصلحة ديغول، لأنني لم أكن أعرف حقيقة الرجل لذا فضلت الخيار الثالث. في العام 1942 انتقلت إلى الخيار الثاني، أي اتخذت موقفاً لمصلحة ديغول. في هذا الوقت سُرّحتُ من الجيش وانخرطت في القسم المدني المساعد له. وحصلت على ميدالية من هذا القسم المدني التابع لفرنسا الحرة. كان الذين اختاروا العودة إلى فرنسا يشكلون الأكثرية الساحقة، ولكن ليس للالتحاق بڤيشي أو خدمة ألمانيا وإنما ببساطة كان معظمهم يرغب في العودة إلى بلده. وقد قال لي أحدهم في حينه، إنه إذا كان لا بد من العذاب فليكن مع عائلتي وفي بلدي. أما الناس الذين يتمتعون بوضع كوضعي وبالتالي يعرفون لبنان ويمكنهم التكيف فيه، فهم أقلية، لكن

القسم الأكبر من الفرنسيين كانوا يعتبرون أنفسهم منفيين. وقد أشرت سابقاً إلى أن الباخرة التي جاءت فيها زوجتي إلى لبنان قد غادرت وليس على متنها مقعد شاغر واحد ما يدلّ على أن الاختيار الأول كان طاغياً بين فرنسيي لبنان.

بدأت عملية الفرز والتنظيم في لبنان في العام 1941 وشملتْ كل الفرنسيين الذين يرغبون في البقاء أو الرحيل. وقد اتفق الطرفان على أن تكون الأميرالية، (البحرية)، التابعة لڤيشي معتمدة لتوفير الاتصال في قاعدة بيروت البحرية التي صارت عموماً ديغولية. وقام كل من الطرفين بحملة دعاوية لاستمالة الفرنسيين إلى صفوفه. وكل طرف يبذل لهم وعوداً خرافية، كأن يُعيّن طرف شخصاً رائداً في الجيش فيزايد عليه الطرف الآخر ويقول للشخص نفسه نعيّنك مقدماً وكذا الأمر بالنسبة إلى المدنيين.

حدثت تطورات عديدة بعد سنتين، وعلمنا في بداية العام 1944، بالتحضيرات التي تتم من أجل الإنزال العسكري للحلفاء في النورماندي، وبالتالي تحرير فرنسا من النازية. بدأ التطلع إلى المستقبل الشخصي بعد التحرير. كان الموظفون الذين انحازوا إلى ديغول يحتجّون بقولهم: «حصل زملاؤنا الذين ذهبوا إلى فرنسا على ترقيات، وتقدمت أوضاعهم، في حين أن أوضاعنا بقيت كما هي بالرغم من تفضيلنا ديغول وخدمتنا للقضية».

في شهر آذار/مارس عام 1944 حوصر ديغول من طرف الموظفين

في الجزائر، وأجبر على اتخاذ قرار ينص على أن الموظفين المدنيين والعسكريين الذين خدموا فرنسا الحرة يصير إدماجهم في الإدارة الفرنسية وذلك قبل 3 أشهر من إنزال النورماندي.

ولكي يتم ذلك وزّعوا علينا أوراقاً لسؤالنا عن المركز الذي نريد أن نشغله في فرنسا. اخترت أنا 4 مراكز أذكر منها اثنين: الدبلوماسي، التعليم العالي، ولم أعد أذكر الآخرين. وعلى الأثر جاءتني برقية من وزارة الخارجية إلى السفارة الفرنسية في بيروت تتضمن عرضاً بتعييني في مركز مهم في الشرق الأوسط كوني أعرف العربية.

في هذا الوقت عُرض عليّ مركز في المكاتب في بيروت فاخترت المكاتب. وما إن اخترتها حتى جاءتني برقية أخرى في اليوم التالي من الخارجية تقول إنه حدث خطأ في البرقية الأولى. كان بوسعي الاعتراض والحصول على منصب دبلوماسي لأن الحكومة التي تلت التحرير كانت مختلطة وتضم في صفوفها شيوعيين واشتراكيين وكان يوجد مفوض شيوعي في الخارجية بوسعي الاستناد إليه والحصول على منصب بعد البرقية الثانية، لأنني غضبت فعلاً وقلت في نفسي: يا للبلاهة. لقد اخترت المكاتب بالأمس مع علمي التام بجدوى خياري وها أنا أغيّر رأيي اليوم!؟ لا يجوز. صرفت النظر عن الموضوع واكتفيت بالمكاتب.

كان لدينا، نحن جماعة فرنسيي اليسار، رصيد أساسي جيد واستراتيجية سياسية واضحة. أنشأنا عدة جمعيات. كان يوجد كثيرٌ

مـن البحّـارة فـي بيـروت وقـد بـادروا إلـى القيـام بانتفاضـة فـي تلـك الأيـام، أو علـى الأقـل كان يسـود بينهـم منـاخ انتفاضـة. هنـا يجـب أن نعـرف أن البحريـة الديغوليـة كانـت فـي مضمونهـا ڤيشـية. كان قائـد البحريـة وضبّاطهـا علـى الأقل ڤيشـيّين، انخرطـوا فـي الحركـة الديغوليـة إذ لـم يكـن بوسـعهم الذهـاب إلـى مـكان آخـر، فـرادى أو مـع بواخرهـم الحربيـة، فبقـوا فـي بيـروت. كانـوا يؤمنـون بأنهـم يخدمـون فرنسـا. وجـاء معهـم أيضـاً عـدد مـن الفرنسـيين مـن بلـدان أخـرى لخدمـة فرنسـا عبـر الالتحـاق ببيـروت. وكانـت بيـروت الفرنسـية فـي حينـه شـديدة الحماسـة لحركـة ديغـول، وصـوره تنتشـر فـي كل مـكان ويحملهـا الملتحقـون بـه ويوزعونهـا بحماسـة.

كنت أُعتبر ممثلاً للحزب الشيوعي الفرنسي بدون تفويض من الحزب وتحالفت بهذه الصفة مع الماسونيين ذوي الحساسية اليسارية مقابل اليسوعيين. وكان هذان التياران هما الغالبين لدى فرنسيي الشرق. لم أكن مغرماً بالماسونيين ولكن كان لا بد من التعامل مع ما هو موجود.

كان بعض الماسونيين المهتاجين جداً لا يُحبّون ديغول لكنهم منخرطون في الديغولية، ومن بينهم شخصية عسكرية طريفة، سجين في سجن راشيا يوم كان الساسة اللبنانيون محتجزين هناك. هذا الرجل كابتن في الجندرمة الفرنسية واسمه مونتيزير، كان اسمه يضحكنا نحن المستعربين. كنا نصفه بالمهدي المنتظر- كان أخرق تماماً ولديه أفكار تآمرية. ومثل هذه الأفكار كان من السهل إمرارها في بيروت حينذاك،

حيث يأتي واحد من شنغهاي أو ڤالباريزو إلى مفوضية فرنسا الحرة في بيروت ويدّعي: «كنت في فرنسا مديراً هنا أو هناك، وقد هربتُ وعلى الطريق فقدت أوراقي في ظروف قاسية» فيُستقبل ويُعينُ في منصب أو وظيفة معينة.

قال لنا مونتيزير وآخرون إن الماسونيين يشاركون في مقاومة عنيدة في فرنسا، وإن لهذه المقاومة قيادة جماعية في مدينة تولون وإنه هو، أي مونتيزير، مكلف بتمثيلها في بيروت.

كان مونتيزير يتخيل وجود مؤامرات إنكليزية في كل مكان. لكن من حسن الحظ أن رجلاً يهوى الأرشيف تمكن من كشف هوية مونتيزير بسرعة من خلال قُصاصات الصحف، فتبين أن هذا الرجل كان، قبل الحرب وخلالها عسكرياً في داكار وفيها وضع مخططاً [خُنفشارياً] يهدف إلى الفوز بثقة المسلمين.

المخطط ينطلق من سؤال مفاده: لماذا يقف المسلمون ضد فرنسا. ويجيب مونتيزير: السبب في ذلك أنهم يذهبون سنوياً إلى الحج في مكة وأن المنطقة واقعة تحت نفوذ الإنكليز. هناك تسيطر عليهم الدعاية الإنكليزية الموجهة ضد الفرنسيين ويتحولون إلى كارهين لفرنسا.

لكي يحل هذه المشكلة اخترع مونتيزير مخططاً شبيهاً بالروايات الصليبية، علماً أنها تبدو واقعية بالقياس على خطته؛ كان يريد تشكيل فرقة كومندوس والإغارة على مكة وأخذ الكعبة من هنالك ونقلها إلى داكار فتصبح تحت السيطرة الفرنسية ممّا يوفّر لفرنسا التأثير في المسلمين.

حبك مونتيزير مؤمرات شتى ضد السلطة الديغولية في بيروت، لذا بادرت قوات فرنسا الحرة إلى سجنه وإرساله إلى راشيا. بعد إطلاق سراحه من هذا السجن، حاول تحريض الفرنسيين المحتجين في بيروت، ونشر بياناً علنياً بعنوان «الديغولية في روح بيان 18 حزيران/يونيو 1940» يميز فيه بين ديغول والديغولية. وكان هذا البيان عبارة عن هَذَيان كامل. لكن القوات الفرنسية كادت تنتفض في بيروت بمبادرة من مونتيزير خصوصاً البحارة، الأمر الذي أدى إلى اعتقاله وسجنه.

في هذه الأجواء أنشأنا جمعيات احتجاجية من نوع: فرنسا المجابهة، فرنسا الحرة... وعددها 4 جمعيات ومن خلالها طالبنا بحصة أسبوعية في الإذاعة الفرنسية في بيروت لبضع دقائق، وكنت أتولى الحديث في الإذاعة باسم واحدة أو اثنتين من الجمعيات. وكنا ننظم اجتماعات في الليسيه الفرنسية ومقر البعثة اللائيكية، ويحضر هذه الاجتماعات فرنسيون مدنيون وعسكريون بالرغم من كون ذلك مخالفاً للأنظمة العسكرية.

كانت للعسكريين ثكنة في باب إدريس وعددهم تقريباً 260 عسكرياً. ذات يوم جاؤوا كلهم لحضور الاجتماع وتركوا في الثكنة جنداً قليلين لحراستها. كان يحق للمشاركين في الاجتماعات التعبير صراحة عن آرائهم، وكانت الآراء تتطاير من فوق المنصة، وبعضها من نوع شتم ضابط عاقب جندياً لمدة 15 يوماً.

وبالصدفة المحضة تحدث أربعة عسكريين كانوا في جيبوتي عن

أنهم عندما طلبوا الالتحاق بقوات فرنسا الحرة أطلق الضابط المسؤول النار عليهم فأصيب أحدهم، وأنهم جاؤوا إلى بيروت ليكتشفوا أن الضابط نفسه هو القائد الآن. هنا وقع تمرد حقيقي وبادرت القيادة الفرنسية التي كانت ذكية إلى تهدئة الموقف وإبعاد مونتيزير إلى برازافيل.

كان مصير مونتيزير فيما بعد مأسوياً. ذلك أنه عاد إلى فرنسا وكان يعتقد بعض أنصاره في بيروت أنه سيقوم بثورة لدى عودته وأن الناس هناك تنتظره للانتفاضة. بعد 3 سنوات زوّر قسائم لشركة السويس فسجن ولم أعد أسمع شيئاً عن أخباره.

في العام 1943 صار الوضع صعباً للغاية بالنسبة إلى وظيفتي وإلى معاشي. حاولتُ الاحتجاج وتعبئة الناس، لكن ذلك لم يخدمني بشيء. كنتُ أعرفُ ما سيحل بي، لذا أرسلت عائلتي في العام 1946 إلى فرنسا. لم يكن لدي ما أنتظره. كنت أقبض راتباً من الخارجية لمدة أشهر بانتظار تدبير أموري. اقترحت الإدارة عليَّ أشياء عديدة لم أقبلها. ما أذكره هو أن المستعربين كانوا مسرورين للتخلص مني لأنني كنت بنظرهم شخصاً مزعجاً.

في تلك الأيام كان الرحيل من لبنان يتم بكثافة، وذلك ابتداء من العام 1946، تأخر بعض الفرنسيين في العودة لأنهم كانوا يملكون شققاً ويريدون التخلص منها شأن الجنراك بنيه الذي اكتشف معه رجال الجمارك علب سردين معبأة بالذهب.

في 2 حزيران/يونيو1947 غادرت بيروت ووصلت في 12 من الشهر نفسه إلى ميناء مارسيليا وذلك بعد أن قمت بزيارة أخيرة إلى فلسطين بين 3 و11 نيسان/أبريل مع صديقة مصرية الأصل هي نينا كاتاش، كان يجمعني بها انتماؤنا الشيوعي.



في بيت جالا (القدس)



في طبرية مع نينا قطاش وآخرون



1948: مكسيم رودنسون يبيع الأومانيته (L'Humanité) صحيفة الحزب الشيوعي الفرنسي في

أحد شوارع باريس

أحزان الحرب اللبنانيّة

كنا نتألم، زوجتي وأنا، منذ اندلاع الحرب الأهلية في لبنان، كلما رأينا مشاهد العنف على شاشات التلفزة. ونأسف لمشاهد الدمار في بيروت. حاولتُ أن أشرح ذلك من خلال مقالات نشرتها في الصحف الفرنسية.

أعتقد أن أسباب الحرب في لبنان مختلطة. فهي ليست حرباً نفذها الآخرون على أرض لبنان، وليست حرباً داخلية محضة. لقد اندلعت الحرب بداية بسبب التنافس بين الطوائف اللبنانية، وكانت هناك بالفعل عناصر خارجية تدفع الأطراف المحلية نحو التقاتل. وأعتقد أن العامل الفلسطيني لعب دوراً كبيراً في هذه الحرب. وقد حدث أن تضاعف الدور الفلسطيني في لبنان في إثر أحداث أيلول/سبتمبر الأسود في الأردن، وطرد منظمة التحرير الفلسطينية (1970-1971) نحو لبنان وتمركزها في هذا البلد.

كنت من القائلين بعدم جواز تشكّل دولة داخل الدولة في الأردن.

لقـد تشـكلت دولـة داخـل الدولـة فـي لبنـان وجـرى فيـه للفلسـطينيين مـا جـرى فـي الأردن.

أعتقد أن الفلسطينيين أخطؤوا في الإصرار على العودة إلى ما كان قائماً قبل تأسيس إسرائل، إذ لم يكن من الممكن العودة إلى هذه الحالة. وهم يعملون اليوم انطلاقاً من فهمهم لاستحالة العودة إلى ما قبل العام 1948؛ علماً أنني كنت أفضّل منذ البداية نشوء دولة متعددة الإثنيات ليعيش فيها الجميع بسلام وقد ناضلت من أجل ذلك.

ما زلت أحتفظ حتى الآن بالأفكار التي تكونت لديّ عن لبنان في ذلك الحين، وخصوصاً ما يتصل بنظام الطوائف اللبنانية. كان تصنيف الطوائف وإحصاؤها في لبنان غريباً بالنسبة إلينا، وكان من الصعب علينا أن نقنع الآخرين في هذا البلد أننا لا ننتمي إلى طائفة فرنسية بعينها. كان عددٌ من اللبنانيين والسوريين يرفضون الطائفية، أما اليوم فقد أصبح الوضع الطائفي طبيعياً في هذا البلد، لدرجة أن أحداً لم يعد يفكّر في إزالته.

لقد صدمني الوضع الطائفي كثيراً في البداية، ثم تعودته شيئاً فشيئاً، مع الإشارة إلى أن الطوائف اللبنانية لم تكن متحاربة في حينه وإنما متنافسة. أكثر ما كان يصدمني هو توظيف الناس في الإدارات ومراكز العمل وفقاً لانتمائهم الطائفي، وليس على أساس كفاءاتهم. كان الأمير مجيد أرسلان وزيراً للدفاع دون أن تكون هناك حرب، وظلّ يحتفظ بهذا المنصب لكونه درزياً وليس بسبب خبرته الحربية شأنه في ذلك شأن كثيرين غيره.

ما يصدمني اليوم هو أن نظام الطوائف يجتاح فرنسا. وقد أشرتُ إلى ذلك في مقال كتبته قبل سنتين بعنوان«الطاعون الطائفي» ونشرته في صحيفة *لوموند*، وحذّرتُ فيه من اجتياح فرنسا من قبل النظام الطائفي.

عرفتُ فيما بعد ما جرى للطائفة اليهودية في لبنان، وأعتقد أن مصيرها مرتبط بالحركة الصهيونية. وهذا الترابط جعل من المستحيل أن تبقى الطوائف اليهودية على حالها، ليس في لبنان فقط، وإنما في كل البلدان العربية والإسلامية. وهذا كان واحداً من اعتراضاتي الكثيرة على الحركة الصهيونية التي جعلت حياة اليهود مستحيلة في هذه البلدان. وإذا كانت لليهود مشاكل خطيرة في الدول المذكورة، فإن حلّها كان ممكناً. لذا كانت الطوائف اليهودية في العالم العربي، بنظر العرب، متواطئة مع الحركة الصهيونية في إسرائيل. بطبيعة الحال لم يكن بإمكان هذه الحركة أن تعيش طويلاً وكنت أعرف ذلك وقد أكدت عليه في مقال نشرته بعنوان «نهاية الصهيونية».

تغيرت بيروت كثيراً ابتداء من العام 1975. زرتها في العام 1968وكانت لا تزال تحافظ على ملامحها، لكني لا أعرف تماماً حالتها الراهنة. أعتقد أنني كنت هناك يوم أغار كوماندوس إسرائيلي على مطار بيروت. كنت أتناول العشاء مع وفيق الطيبي بحضور يوسف إبراهيم يزبك. أدركتُ يومها أن شيئاً كبيراً قد حدث وربما سيؤثر في الوضع اللبناني عموماً.

كانت تلك هي المناسبة الأخيرة التي التقيت خلال يوسف إبراهيم يزبك قبل وفاته، وقد أهدى إلي يومها آخر كمية وصلتني من الصعتر. قبل ذلك أحبّتْ ابنتي، وهي المولودة في بيروت، أن تتعرف على مكان ولادتها فزارت المدينة وسكنت في منزل يزبك. كان مناضلاً شجاعاً.

مشاعرنا تجاه لبنان ليست واحدة. فأولادي لديهم قدٌر من الأحاسيس العاطفية بسبب ولادة اثنين منهم في بيروت، وأعتقد أن لهما الحق بالحصول على الجنسية اللبنانية بسبب المولد. تماماً كما كان بإمكاني الحصول على الجنسية الروسية لأنني مولود في باريس لأبوين روسيَّي الأصل. والدي كان له عشرون سنة من العمر عندما جاء إلى باريس وكان ينتمي إلى الأمبراطورية الروسية. وصل إلى فرنسا عام 1885م، في حين وصلتْ والدتي في العام 1905 وأنا ولدت عام 1915.

مشاعر أولادي تجاه لبنان هي التي حملتْ ابنتي على زيارة بيروت خصوصاً كي ترى المنزل الذي ولدت فيه. إبني الثاني ذهب إلى إسرائيل ولم يكن مؤيداً لها لكنه ذهب ليرى هذا البلد عن قرب.

بعد عودتي من لبنان كنت غالباً ألتقي أناساً كثيرين ممن عرفتهم هناك. بعض تلاميذي في المقاصد جاؤوا إلى باريس واتصلوا بي وحاولوا إكمال دراستهم معي. أحدهم ويدعى حلمي نوال جاء إلى فرنسا وأقام فيها وتزوج فرنسية. كنت ألتقيه وأناقشه أحياناً. كنت ألتقي أيضاً أشخاصاً من آل عسيران، عاطف وعفيف عسيران. هذا الأخير

اعتنق المسيحية وغيّر مذهبه ورأيته في باريس. كما رأيت أيضاً عاكف عسيران. تجولت كثيراً مع عاكف في باريس وقد ساعدني على اكتشاف أشياء فرنسية لم أكن أعرفها من بينها أشعار لبول ڤاليري.

أصبح عاكف قاضياً فيما بعد. عندما التقيته كنت أعمل في المكتبة الوطنية في فرنسا، وقد عملت فيها خلال 6-7 سنوات. في إحدى المرات جاء عفيف عسيران إلى المكتبة وسجل اسمه أمامي فقلت له: هل أنت شقيق عاكف وعاطف، فدهش للسؤال وهو لم يكن يتوقع أن يطرحه عليه أحد في المكتبة الوطنية، لكن أخبرته بالقصة. عفيف صار يسوعياً واعتنق المسيحية.

بعد لبنان لم تفلح زوجتي في إقناعي بالاهتمام بالنبات. فأنا لا أستطيع أن أضع هذه المسألة في رأسي. أستطيع فقط أن أميّز بين بعض النباتات المحدودة. حاولتْ خلال سنوات أن تحملني على العمل في هذا المجال دون جدوى. أساعدها أحياناً في ري بعض النباتات في الحديقة أثناء العطل الصيفية. لكن بالمقابل تمكنتْ من التأثير في اختيار أبنائنا المهني ولديها تأثير قوي فيهم. فابني البكر مهندس زراعي وابنتي مهندسة زراعية أيضاً لكنها لم تمارس هذه المهنة بسبب ارتباطها السياسي. إبني الثاني ميشال يهتم قليلاً بالزراعة بتأثير من والدته أيضاً.

لا أستطيع القول إنني كنت مفهوماً في لبنان أكثر من مناطق أخرى. ففي كل مكان هناك من فهم أعمالي وهناك من لم يفهمها. أولئك الذين فهموها لا يعبّرون عن تأييدهم لها بقوة. أما أولئك الذين لم يفهموها

فهم يصرخون ضدي عالياً ويكتبون أشياء بهذا المعنى. لقد وضع أحد الأتراك كتاباً ضدي في غاية الشدة. وقيل لي إنه رشّح نفسه على الأثر للانتخابات النيابية مستخدماً الكتاب في حملته الانتخابية.

ألتقي غالباً أناساً عرباً وأشخاصاً غير عرب ممن أعجبهم كتابي حول العرب لكنهم لا يعبّرون عن إعجابهم كتابة، ولا يصرخون تأييداً لي من على «سطوح المنازل». يسرني أن أسمع آراءهم بطبيعة الحال. لكن كثيرين صرخوا ضدي خصوصاً بسبب كتابي عن النبيّ محمد. أعتقد بأنه لا يمكن الحصول على رضى كل الناس ولم يكن هدفي كذلك في أي يوم.

عندما أسأل عن السبب في عدم تقديم نفسي كاختصاصي في الشؤون اللبنانية، أرد بأنه يجب على المرء أن يختص بشيء ولكن ليس كثيراً. فأنا ما أردت يوماً أن أكون منغلقاً على موضوع واحد، خصوصاً إذا كان عليّ أن أعمل لسنوات على هذا الموضوع دون غيره. لذا عملت على أن لا أخضع لهذا النمط من الاختصاصيين بحيث لا أكون مكرهاً على ذلك. أقضي أحياناً 6/5 أشهر في العمل على مواضيع صغيرة وبعد ذلك ينتهي الأمر.

لم أقدّم نفسي كخبير في الشؤون اللبنانية بالرغم من معيشتي في لبنان لمدة سبع سنوات، ولا ألوم الآخرين على خياراتهم. لقد كتب دومينيك شوڤالييه كتاباً جميلاً ومفيداً عن لبنان، ولا أعلق على خياره. لكن عندما أرى أن كلود كاهان قد كرس حياته للبحث في الإسلام

في القرون الوسطى، أقول إنه أغلق على نفسه بنفسه دون العالم وهو صديقي وأحبه وأقدره كثيراً. بطبيعة الحال التاريخ اختصاص كبير. لكن عندما تلتزم شيئاً من هذا النوع، ويصبح وحده اختصاصك لا يعود بإمكانك أن تفعل شيئاً آخر، وتنغلق على الباقي. أنا كنت أرغب دائماً في معرفة الباقي. لذا أقرأ الصحيفة يومياً، وهذا يأخذ مني ساعة ونصف الساعة في اليوم. أعتقد أن الآخرين لا يفعلون ذلك. فالاختصاصي في الشؤون الكردية مثلاً لا يهتم بشيء آخر غير الأكراد. أنا لا أستطيع أن أفعل ذلك.

لم أكتب كتاباً عن لبنان وإنما كتبت بعض المقالات. لم أعمد إلى ذلك لأسباب أخلاقية. ذلك أنني لو أردت الكتابة عن هذا البلد فعليّ أن أذهب إلى لبنان وسوريا وأجري تحقيقاً معرفياً على الأرض. فكّرت في ذلك أحياناً لكنني اكتشفت أن هذا العمل قد يأخذ مني وقتاً طويلاً في حين أنني كنتُ راغباً في مواصلة اهتمامي بحياة النبي محمد. أعتقد أنه لا يمكننا أن نفعل كل ما نريد. يمكننا فقط أن نعمل أشياء قليلة وقد أدركت ذلك الآن وعندما بلغت الثمانين من العمر.

ومن بين المفارقات التي طبعت حياتي، أنني كنت أكسب معيشتي من معرفتي باللغة الأثيوبية وقد استمر ذلك لمدة 40 عاماً. فأنا أستاذ في اللغة الأثيوبية منذ العام 1955 كلية الدراسات العليا التطبيقية. قد اخترت ذلك بوعي كامل. كنتُ أعتبر أنني لو اخترتُ تدريس تاريخ الإسلام أو علم الاجتماع أو أنثربولوجيا الشرق الأوسط فإن هذا

الاختيار سيأتيني بـ 50 طالباً وسيكون عليّ بالتالي إدارة 50 أطروحة. في حين أن تدريسي الأثيوبية واللغة الحميرية، (العربية الجنوبية القديمة) كان يأتيني بـ 5 أو 6 طلاب ويعود عليّ بالتالي إدارة 5 أو 6 أطروحات. وهذا الأمر كان يوفّر لي الوقت لمواصلة أبحاثي وكتاباتي.

بالرغم من تعليمي الأثيوبية فأنا زرت أثيوبيا لمدة 3 أسابيع فقط خلال أربعين عاماً. في حين أنني أمضيت 7 سنوات في لبنان.

وفي الحصيلة لا أملك سوى التسليم بأنني فعلت أشياء قليلة قياساً على ما رغبت في فعله وخططت له ...



كانون الأول 1968: رودنسون محاضراً في الندوة اللبنانية



مع مؤسس الندوة اللبنانية ميشال الأسمر في المناسبة نفسها



تقي الدين الصلح رئيس الوزراء الراحل وآخرون في عداد الحضور



مصافحاً خاتشيك بابكيان

في هذا الكتاب



أن يقضي مستشرق - ولو من طراز مكسيم رودنسون - سبع سنوات في بلادنا ليس بالذريعة الكافية لأن يُعَدّ كتاب عن تفاصيل إقامته فيها.

ولكن أنْ يمتنع هذا المستشرق عن إضافة هذه السنوات إلى رصيده «العلمي»، خلاف آخرين أنفقوا بين ظهرانينا أقل ممّا أنفق وأجادوا العربية دون ما أجادها، أن يمتنع عن ذلك، فأمر لا يخلو من أن يكون مدهشاً...

تلبيةً لداعية الفضول التي حرّكها وقوف الرجل موقف «العفاف» هذا، كانت هذه الأحاديث، فهذا الكتاب المتواضع الذي لا يطمع بأن يكون غير تحية ذات «مفعول رجعي» لرجل أعفاه تشريقه من الاستشراق!

فيصل جلول، لبناني مواليد الزلقا وهو من أصول بقاعية.

- **درس في الجامعتين العربية واللبنانية وتابع دراساته في السوربون في باريس حيث ما زال مقيماً حتى اليوم. وهو يردد منذ سنوات شعار «لا ديمرقراطية ولا تنمية ولا تقدم للعبيد والتابعين.. الديمقراطية للسادة والأحرار وذوي الرؤوس المرفوعة حصراً.**
- **كاتب ومعلق سياسي وباحث يعمل منذ سنوات على مشروع نقدي للثقافة السياسية العربية صدر منه حتى الان «حوار المشرق والمغرب» مع حسن حنفي ومحمد عابد الجابري عن الدار العربية للعلوم الطبعة الخامسة 2010. و«مصر بعيون الفرنسيس» عام 2007 عن الدار نفسها. وأخيراً «أن تكون عربياً اليوم» عن دار المسيرة في تونس خريف 2012.**
- **مشارك في برامج حوارية في القسم الأكبر من الفضائيات والاذاعات العربية وبعض الأجنبية وفي ندوات وحلقات أبحاث في أوروبا والعالم العربي.**

ISBN 978-9953-71-896-5

